بقلم المرشد الاجتماعي هاينريش آرنولد Heinrich Arnold

التحرُّر من الأفكار الأثيمة

FREEDOM FROM SINFUL THOUGHTS

إشادات بالكتاب من القراء

اِستفدتُ كثيرا من هذا الكتاب. شكرا على جهودكم لنشر الوعي والتعلّم وزرع المحبة بين النفوس. أُعيد شكري الحار.

أحمد

شكرا كثيرا. نحن نحتاج ذلك بشدة في هذا الزمن الذي أصبح كله خطايا.

فيصل

أنا بحاجة لهذا النوع من الأفكار لعلاج الضغوطات الحياتية ومساعدة أفكارنا على الإبداع. . . . وتطبيقها وتحسين سلوكنا ومعاملاتنا وإبداعنا.

حنان

مرحبا!. . . . طبعا، أنا أريد أن أشكركم جزيل الشكر على هذا الموضوع الجميل الرائع. وأنا أريد أن أتخلّص من أفكاري الوسخة، وأريد أن يتم خلاصي وأكرّس نفسي للمسيح. بصراحة، أنا أريد أن أكون راهبا وأخدم يسوع المسيح من كل قلبي. وشكرا جزيلا.

Jack Clemerson

كتاب فكرته رائعة و مفيدة لكل إنسان. وأنا كنت بادور عليه من غير ما أعرفه.

عمر

أنـا حبيـت فكـرة الكتاب جدا، والله رائع. مشـكور على هذا العمـل. يا ليـت كل المواضيع هكذا.

سارة محمد

I think a book like this is important for the people of today, cause all of us facing lot ungood things every moment.

Hadi Gadim

أنـا مـن السـودان، وحقيقـة لا أجـد تعبـيرا مناسـب أكتبه، تعجـز حـروفي عـن التعبـير لكـم، ألـف شـكر ووفقكـم الله وسـدد خطاكم.

فائز عوض

إنـه كتـاب يحمل المواضيع التي يجـب نشرها في هذا الزمن، لأن الصراع مع النفس من أكبر الجهاد. وكل المواضيع مشيرة إلى خطى سـليمة. بارك الله فيكم.

هبة الله

كنتم رائعين بامتياز، والفضيلة لكم من الله تعالى.

الدكتور عبد الله البياتي

التحرُّر من الأفكار الأثيمة

FREEDOM FROM SINFUL THOUGHTS

بقلم

المرشد الاجتماعي

هاينريش آرنولد

Heinrich Arnold

المقدمة بقلم

جون مايكل تالبوت

John Michael Talbot

دار المحراث للنشر

PLOUGH PUBLISHING HOUSE

يرجى مشاركة هذا الكتاب مع أصدقائكم ولا تترددوا في إرساله في البريد الإلكتروني أو طبع الكتاب كليا أو جزئيا، لكن الرجاء عدم إجراء أي تغيير بأية طريقة كانت وإذا رغبتم في عمل نسخ متعددة منه لتوزيعه على نطاق واسع، أو لإعادة استنساخ أجزاء منه كرسائل إخبارية أو دورية، فيرجى مراعاة القيود التالية :

- لا يجوز إعادة نشره لمكاسب مادية
- يجب إدراج عبارة الائتمان التالية: «حقوق الطبع والنشر لدار المحراث للنشر Plough Publishing House - سنة 2007م. تم استخدامه بعد الإذن.»

هذا الكتاب «التحرُّر من الأفكار الأثيمة»
عن نسخته الإنكليزية «Freedom from Sinful Thoughts»
هو من منشورات دار المحراث للنشر Plough Publishing House،
في عناوينها التالية:
Robertsbridge, England
Walden, New York
Elsmore, Australia
www.plough.com/ar
صورة الغلاف: © Jim Smithson/Corbis

طبعة جديدة لسنة 2017م
الترقيم الدولي للكتاب (ردمك):
ISBN: 978-0-87486-712-1

جميع الحقوق محفوظة
Copyright © 2007 by Plough Publishing House
Walden, NY, USA

إنْ عَطِشَ أحَدٌ مِنْكُمْ،
فَلْيَأْتِ إلَيَّ وَيَشْرَبْ.
وَمَنْ آمَنَ بِي،
سَتَفِيْضُ مِنْ أعماقِهِ أنْهارُ ماءٍ حَيٍّ.

يسوع الناصري

محتويات الكتاب

- **كلمة إلى القارئ** بقلم يوهان كريستوف آرنولد 9
- **المقدمة** بقلم جون مايكل تالبوت 13

التحرُّر من الأفكار الأثيمة

بقلم هاينريش آرنولد

1 الصراع الروحي 19
2 التجربة 25
3 الخطيئة المُتعمَّدة 31
4 الإرادة البشرية 37
5 قوة الإيحاء الخارجي 42
6 قوة الإيحاء الذاتي 47
7 الوقوع أسير الأفكار 54
8 قمع الأفكار 59
9 الإيمان بالمسيح 64

10 الاستسلام لله 70
11 الاعتراف بالخطايا 76
12 الصلاة 83
13 الانفصال وتصفية الذهن 89
14 التوبة والولادة الثانية 97
15 الشفاء 106
16 التنقية الروحية 115
17 الصليب 123
18 تكريس الحياة لملكوت الله 129

- من سيرة الكاتب 134
- نبذة عن جماعة برودرهوف 143

كلمة إلى القارئ

بقلم يوهان كريسستوف آرنولد

على الرغم من مرور أربعة وعشرين عاما على نشر أول كتاب لوالدي «التحرُّر من الأفكار الأثيمة» إلا إني ما زلت أتذكر تلك المناسبة بصورة جيدة وكأنها حدثت بالأمس. فقد عمل والدي في إعداد الكتاب لأشهر عديدة، وبالرغم من أن الكتاب صغير، إلا أن الكثير من المحبة والجهد والتفكير انصبّ عليه. وكنت في ذلك الوقت قد عملت معه في خدمة رعية الكنيسة لمدة سنتين، لكن وطّد مشروع إنجاز هذا الكتاب علاقتنا بأسلوب رائع.

كان يبدو دائما أن هناك شيئا يشغل اهتمام والدي بشكل متميز ألا وهو: مهمة الخدمة الرعوية لتقديم المشورة والتقوية الروحية وتشجيع أفراد مجتمع الكنيسة من الذين كانوا يخوضون صراعات روحية أو يمرّون بأوقات عصيبة. لذلك رأى والدي أن كتاب

«التحـرُّر مـن الأفكار الأثيمة» هـو ضرورة لابد منها؛ لأنه كان قـد شـهد كيـف تأخـذ الصراعات الروحيـة الكثير من النـاس إلى إحبـاط أو يـأس لا نهاية لهما، فأراد أن يقاسـم الآخريـن قناعتـه بأنـه يوجـد مخـرج من هـذا المأزق.

وقـد لاقـى هذا الكتاب صـدى عجيبا مـن قبل القراء حتـى مـن قبـل طبعه؛ فقـد كانت لـه الكثير مـن الخطب حـول موضوع الصراع في سـبيل الحصول على قلب طاهر نقـي، ولم يكـن لـه آنذاك سـوى نسـخة غـير مطبوعة من مسـودة الكتـاب. غـير أن ردود القـراء كانـت شـيئا غـير متوقـع؛ فصـارت الرسـائل تتدفق مـن كل حدب وصوب، وسرعـان مـا تبيّن أن هذا الموضوع ربمـا لا يكون موضوعا مسـتحبّا يتناوله الناس أثناء حديثهم، إلا أنه كان بالتأكيد واحدا من الهموم الواسـعة الانتشـار لديهم والذي يشغل بالهـم كثـيرا، وموجـود ليـس في صفـوف المؤمنـين الجـدد أو المؤمنـين الشـباب فحسـب بـل أيضـا لـدى المسـيحيين الناضجـين الملتزمين.

وفـور نـشر الكتاب فـإذا بالرسـائل تنهال علينـا. فأخذ الكثـير مـن النـاس الذيـن لا نعرفهـم والكثـير مـن نـزلاء السـجون يكتبـون الرسـائل، ويخـبرون والـدي بـأن هـذا الكتـاب أحـدث نقطـة تحـول في حياتهـم، وشـجّعهم عـلى المـضي قدمـا في الحياة وأعطاهم أمـلا جديدا. وقد أكّد أكثر

من شـخص على أن قراءة هذا الكتاب أنقذهم من اقتراف الانتحـار. ولمـا تم نـشر الكتاب لم يحدث ضجـة إعلامية أو مـا شـابه ذلـك لكن من ناحيـة أخرى كانت الطلبات تسـير جيـدا وبمعـدل ثابت.

لقد توفي والدي في عام 1982م، غير أننا عثرنا في السنين التـي تلـت وفاتـه عـلى عدد كبير مـن المواد غير المنشـورة، مثل أشرطة مسـجلة ومدونات أصلية وملاحظات ورؤوس أقـلام وأكداس كبيرة من الرسـائل. لهـذا تمت إضافة الكثير مـن هـذه المواد إلى النسـخة الأصلية من الكتـاب، وحصلنا عـلى الكتاب الحالي الـذي بين أيديكم الآن.

وقـد ظلت رسـالة الكتـاب باقية لم تتغـير ومفادها أن والدي أصر على أن السـيد المسـيح قادر على أن يريّحنا من شـدائد الصراعـات الروحيـة، وأن ينعـم علينا بالشـفاء من جراحـات الـشرّ، والتحرّر من قيـود الخطيئة.

ويحتوي كتاب «التحرُّر من الأفكار الأثيمة» على حِكَم مهمة وتحليل موضوعي ثاقب عن أهم الصراعات الروحية الموجودة على الصعيد العالمي لدى جميع الناس، ومكتوبة بأسلوب مبسط يفهمه عامة الناس. وعلاوة على ذلك، فهو يحتـوي بـين طياته على وعود لحياة جديـدة لأولئك القرّاء الذيـن أدّى قلقهـم على الـذات وخطاياهـم المقترفة بالسرّ

ومشاعر الذنب أو الخوف إلى حجب صلواتهم من الوصول إلى الله وأدى أيضا إلى إعاقة محبتهم لله ومحبتهم لأخيهم الإنسان بقلوب متحررة وغير منقسمة على نفسها. وفي هذا العالم الذي غالبا ما يبدو مظلما ومكفهرا ويبعث على اليأس، يحمل هذا الكتاب رسالة فرح وأمل.

الكلمة بقلم

يوهان كريستوف أرنولد

Johann Christoph Arnold

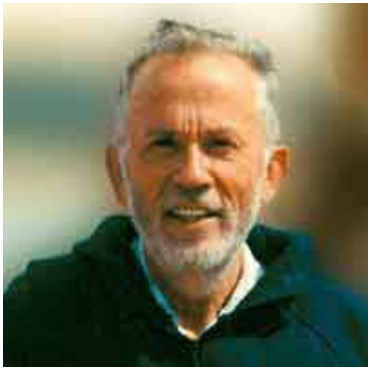

أحد رعاة وقساوسة جماعة برودرهوف المسيحية

Bruderhof

إقليم ريفتون في نيويورك

Rifton, New York

أغسطس/آب 1997م

www.bruderhof.com

المقدمة

بقلم جون مايكل تالبوت

يزخر التراث المسيحي بكثير من الحِكَم والنصائح فيما يخص التعامل مع موضوع الأفكار والمشاعر. وكتاب هاينريش آرنولد « التحرُّر من الأفكار الأثيمة » هو خير مثال على ذلك.

فبأسلوبه الذي لا يختلف كثيرا عن أسلوب القديس أوغسطينوس St. Augustine في الغرب وأسلوب الآباء الرهبان في الشرق فأن هاينريش آرنولد يجعلنا نتواجه وجها لوجه مع حقيقة المعارك التي يخوضها الإنسان مع التجارب والخطايا انطلاقا من تقاليده الكنسية وتجاربه في مجتمعات برودرهوف The Bruderhof التي تعيش حياة مسيحية مشتركة على مثال الكنيسة الرسولية. والحكمة التي يقدمها إلينا صادقة وواقعية، لكنها مشبعة بإيمان خالٍ من المساومة وبيقين تام بقدرة الروح القدس

في تجديـد النفوس وتغيـير الحياة.

وبالنسـبة إلينـا نحـن البـشر، فـأن تصرفاتنـا تعكـس تفكيرنـا أي بمعنـى أن نوعية شـخصيتنا تتوقف على نوعية تفكيرنـا. ولهـذا السـبب يجـب علينـا أن لا نقلـل أبـدا من شـأن نوعيـة الأفـكار التـي ندخلهـا في أذهاننـا. لأن أرواح الشر تسـتخدم الأفكار الشريرة الموجودة في ذهن الإنسـان كوسـيلة لتشـنّ حربـا عـلى روحـه. ولهـذا السـبب حذرنـا الأسـقف ماكسـيموس bishop Maximus الـذي عـاش في القـرن الميـلادي الخامـس، فقال:

> إن بنـاء تخيّلات فكرية شريرة واقتراف الخطيئة في الفكر أسـهل من تجسـيدها كأفعال شريرة. غير أن الصعوبـة مـن ناحيـة أخـرى هي أن الـصراع اللازم لإزالـة تلـك التخيـلات الهائجـة مـن الفكـر أصعب كثـيرا من الصراع الـلازم لإزالتها مـن الأفعال.

وقال يسوع المسيح:

فَمِنَ الْقَلْبِ تَنْبُعُ الأَفْكَارُ الشِّرِّيرَةُ. (متى 15: 19).

وقال يسوع المسيح أيضا:

فَحَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ، هُنَاكَ أَيْضاً يَكُونُ قَلْبُكَ. (متى 6: 21).

لكن يوجد عدد كبير منا نحن البشر، بالإضافة إلى بعض منا من الذين ندّعي بأننا مسيحيون، يكون كنزنا هو أفكارنا الخاصة التي تدور في بالنا أو تخيلاتنا الفكرية. فنحن لا نريد اقتراف الإثم لكننا من ناحية أخرى لا نريد أيضا أن نتخلى عن ما نملكه من تخيلات. فحياتنا الفكرية بالذات هي المكان الذي تجري فيه المعارك والمكان الذي ينتصر فيه الصراع أو يتقهقر، سواء كان الصراع في سبيل الخير أو الشر. وقد أدرك ذلك القديس بولس الرسول فكتب قائلا:

وَلاَ تَتَكَيَّفُوا مَعَ هَذَا الْعَالَمِ، بَلْ تَغَيَّرُوا بِتَجْدِيدِ الذِّهْنِ، لِتُمَيِّزُوا مَا هِيَ إِرَادَةُ اللهِ الصَّالِحَةُ الْمَقْبُولَةُ الْكَامِلَةُ. (رومة 12: 2)

ففي نظر القديس بولس الرسول، فأن عملية تغيير أفعالنا تبدأ بتغيير أفكارنا – أي بمعنى، أن التحرر من الأفكار الأثيمة هو خطوة مهمة جدا ولها دور كبير على طريق التحرر الشامل لحياتنا الذي نحصل عليه بفضل السيد المسيح.

واهتمام الكاتب هاينريش آرنولد بموضوع الأفكار

الأثيمة يجب أن يُنظر إليه في إطار هذا المفهوم العظيم لعملية التغيّر، (أي تغيّر الإنسان وتحوّله من حياة الشرّ إلى حياة القداسة). واهتمامه بهذا الموضوع ليس مسألة انشغال وانهماك مهووس بكيفية الوصول إلى درجة الكمال. ذلك أننا كلنا نصارع صورا وأفكارا غير مرغوب فيها في بالنا. لكن، وكما يؤكد لنا الكاتب هاينريش آرنولد، أن الأفكار المُغرية التي تخالجنا ليست أثيمة بحد ذاتها. لأن المهم هو ما سنفعله بهذه الأفكار. وقال القديس يعقوب الرسول في الإنجيل:

فَإِذَا مَا حَبِلَتِ الشَّهْوَةُ وَلَدَتِ الْخَطِيئَةَ. (يعقوب 1: 15)

لذلك، فالسؤال هو: أنقبل بالأفكار الشريرة التي تأتينا ونرحب بها، ونعيش فيها، ومن ثم نقوم بتنميتها، أم نتعامل معها وكأننا في معركة ونجاهد في سبيل التغلب عليها بقوة المسيح؟

ليس هناك سوى السيد المسيح من هو قادر على إزالة لعنة الخطيئة. وهو وحده يضفي معنى على الصراع الروحي – لأنه الغاية والهدف لجهادنا. ولهذا السبب كتب القديس أغسطينوس (وهو من آباء الكنيسة في القرن الميلادي الخامس) قائلا:

لنرنم هلِّلُويا ولنسبّح الرب هنا على الأرض. . . . حتى لو كان ذلك في وسط صراع التجارب التي نتعرّض لها والهموم التي تنتابنا. . . . لا لنستمتع بمتاع الدنيا بل لنخفّف عنا أحمالنا.

فمن خلال تمجيدنا لله حتى لو كنا في وسط صراع التجارب فسوف نكفل تحرّرنا من أعباء الاغتمام الذي في داخلنا.

وفي النهاية، فأن صراعنا صراع مفرح. لأننا لدينا اليقين بأن جبروت محبة الله أعظم بكثير من قلوبنا وأذهاننا حتى لو فشلنا مرة – لأننا سوف نفشل بالتأكيد في بعض المرات. وعلاوة على ذلك، فيمكن أن يكون لدينا ثقة مطلقة بالله، كما يحثنا عليه الكاتب هاينريش آرنولد في قوله التالي:

يجب علينا التحلّي بمثل هذه الثقة المطلقة بالله أي بمعنى ثقة قوية لا تلين، بحيث حتى لو لم نشعر بأي شيء أو لم نلمس أي نتيجة لحد الآن، فسوف نسلّم رغم ذلك أنفسنا له كليّا ومن دون أي تحفظات وبكل ما نحن عليه وبكل ما عندنا. . . فسوف ينعم الله علينا عندئذ بالمغفرة والتطهير وسلام القلب؛ وسوف تخلق هذه النعم فينا محبة لا يمكن وصفها.

وتُعتبر عملية التحرّر من الأفكار الأثيمة نعمة إلهية عظيمة، وهي نعمة تهبها محبة الله، ولعل كل قارئ يلمس هذه النعمة الإلهية عندما يتأمّل في حكمة هذا الكتاب. فبدونها ترانا نتخبّط في الإحباط والاضطراب الروحي. لكن معها ننتصر كل الانتصار.

المقدمة بقلم

جون مايكل تالبوت

John Michael Talbot

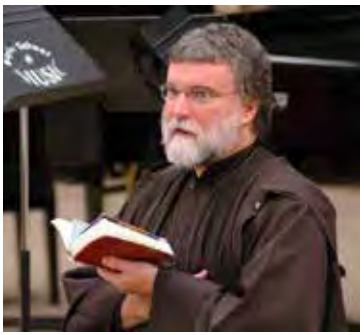

وهو مؤسس جماعة مسيحية رهبانية وعلمانية مختلطة وأسمها «إخوة وأخوات المحبة Brothers and Sisters of Charity»

حيث تتألف من الرهبان والراهبات والعزاب والعائلات، في مدينة يوريكا سبرينجس، في ولاية أركنساس الأمريكية Eureka Springs, Arkansas

www.littleportion.org

1

الصراع الروحي

الأفكار الأثيمة

مشكلة تهمّ كل مؤمن من وقت لآخر. فإذا تعذب الرجل أو المرأة بصورة متكررة من بلاء المشاعر أو الصور غير المرغوب فيها فسوف تغدو هذه التجربة عبئا ثقيلا على الشخص.

فالأفكار عموما تُسلِّط ضغطا على الشخص لكي تجعله يجسدها على أرض الواقع، لكنها تصبح لعنة إن كانت فكرة شريرة. وأنا أعرف الكثير من الناس الذين كانوا يضطربون روحيا من جراء شهوة أو فكرة شريرة تنتابهم، إلا أنهم كانوا يفضلون الموت على اقترافها وتجسيدها على أرض الواقع – وبرغم ذلك، كان يبدو أن مثل هذا التصميم لم يكن بمقدوره أن يجنّبهم الصراع الروحي؛ فتراهم وكأنهم ملاحقين من قِبل الفكرة. وقد تكون هذه الأفكار عند البعض أفكار حسد أو حَمْل ضغينة في الصدر على شخص ما أو مشاعر شكوك وعدم ثقة بأحد الأشخاص؛ لكن قد

تكـون عند البعض الآخـر أفكار الخيال الجنسي؛ وقد تكون عند غيرهم مشـاعر حقد وكراهية أو تجديف على الله أو حتى أفكار قتل.

ولا أظـن أن هنـاك مـن هو قادر على تفسـير ما يجري في قلبـه أو قلبهـا تفسـيرا كامـلا ودقيقـا. فاللـه وحـده عالم بحالـة نفـس كل إنسـان، لكننا من ناحية أخـرى نعلم علم اليقـين وفقـا للإنجيل بأنه:

مِنَ الْقَلْبِ تَنْبُعُ الأَفْكَارُ الشِّرِّيرَةُ. (متى 15: 19)

ويقول الإنجيل أيضا:

طُوبَى لأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ، (متى 5: 8)

وتُعتـبر هـذه الكلـمات البسـيطة للـرب يسـوع أساسـا لفهـم هـذا الكتـاب.

لقد رأيت من خلال خدمتي الرعوية في تقديم المشورة لأبناء مجتمع كنيسـتي أن الكثير من الرجال والنسـاء كانوا يخشـون الاعـتراف بأنهـم يصارعـون الأفكار غـير المرغوبة فيهـا. فكانوا يظنـون أنهم الوحيدون الذين قـد ابتلوا بهذا الأمر. إلا أننا نحن البشر لدينا كلنا بالحقيقة طبيعة شريرة

بدرجـة أو بأخـرى. ففي حياتنا قد نستسـلم كلنا من وقت لآخر للشـيطان الذي هو ليس فكرة نظرية بل قوة شريرة حقيقية يهاجم كل شـخص في أشـد نقاط ضعفه أو ضعفها. وبمجرد أن يحظى الشيطان بمكان في قلوبنا، فسوف يؤدي الـشر المتجذّر هناك إلى كلمات شريرة، والتي سـوف تؤدي بدورها إلى أفعال شريرة.

وقـد ترعرعـتُ أنـا شـخصيا في ألمانيـا في العشرينيـات، وقـد سـمعت تصريحـات بغيضة بحـق اليهود، لاسـيما من دار الاسـتراحة الـذي كان يقابـل منـزل أهـلي هنـاك. وقـد تجاهـل معظـم سـكان القرية الخطـورة الكامنة في ظاهرة معـاداة السـامية (أو معـاداة اليهـود،) لكـن احتـج والـدي عليهـا احتجاجـا عنيفـا، وقال:

> ربمـا يقتـصر الأمر الآن على كلام شرير، لكنه سـوف يـؤدي لاحقا إلى أفعال شريرة. وسـوف يقوم الناس فعـلا في يوم من الأيـام بتطبيق ما يقولونه.

وهذا ما حصل بالفعل.

وتنتـاب بعـض النـاس أفـكار شريـرة بصفـة مسـتمرة بحيـث تراهـم يعيشـون في حالـة لا يمكننـا أن نطلق عليها سوى كلمة «عذاب.» لكن ينبغي أيضا أن يثق هؤلاء الناس

بـأن اللـه قـادر على أن يرى ما في أعماق قلب الإنسـان. ثم أن الله يعلم بالتأكيد بأنه على الرغم من اضطراب مخيلتنا إلا أن الفـؤاد لا يبغـي أفـكارا شريـرة ثقيلـة الأعبـاء. ولـو كنـا مـا نزال غـير متأكدين من ذلك بالرغـم مما جاء أعلاه، فيمكننا أن نسـتمد التعزية من كلام اللاهوتي والفيلسـوف الألمـاني ايكهـارت Eckhart [1] فقد كتب:

> لـو أردتَ أن تتأجَّـج حياتـك بمحبـة اللـه فيجـب أن تشـتاق إلى اللـه. ولـو لم تحـس لحـد الآن بهـذا الاشـتياق، فيجـب أن تشـتاق إلى ذاك الاشـتياق.

من الواضح أن أي اشتياق لدى الإنسان إلى الحياة الشريفة العفيفـة هـو علامة على بدايـة عمل الله في قلب الإنسـان حتـى لـو كان هـذا الاشـتياق في أولـه أو لم تكـن معالمـه واضحـة بعد.

هنـاك طبعا فرق شاسـع بين الاسـتمتاع عمدا بالأفكار الشريـرة وبـين الجهـاد ضدهـا. وقـد قدمـتُ المشـورة إلى أشـخاص كانـوا يشـعرون بـأن الأفـكار أو الشـهوات غـير المرغـوب فيهـا كانت تلاحقهم بشـدة، بحيث قالوا لي أنهم على اسـتعداد لأن يسيروا الكرة الأرضية كلها إذا استطاعوا

(1) اِيكهـارت Eckhardt أو مايسـتر ايكهـارت Meister Eckhardt لاهـوتي وفيلسـوف ألمـاني من الآبـاء الروحانيين من القرن الميـلادي الثالث عـشر وكانـت لـه الكثير مـن الكتابات المفيدة بشـأن العلاقة مـع الله.

ذلك لمجرد أن يتحرروا منها. وهم على استعداد لأن يقدموا كل شيء في سبيل الحصول على سلام الفكر وعلى قلب عفيف نظيف.

أن مثل هذا التصميم جيد، لكن من الضروري أن ندرك في الوقت نفسه أننا لا يمكننا تحرير نفوسنا بقوتنا البشرية. لأن الصراع بين الخير والشر ليس صراعا محصورا «في الذهن،» لكنه معركة على صعيد الكون بين الروح القدس وبين الخطيئة، التي وصفها القديس بولس الرسول كالآتي في هذه الآية الإنجيلية:

وَلكِنَّنِي أَرَى فِي أَعْضَائِي نَامُوساً آخَرَ يُحَارِبُ الشَّرِيعَةَ الَّتِي يُرِيدُهَا عَقْلِي، وَيَجْعَلُنِي أَسِيراً لِنَامُوسِ الْخَطِيئَةِ الْكَائِنِ فِي أَعْضَائِي. (رومة 7: 23).

ويتطلب الفوز بهذه المعركة الإيمان بالرب يسوع المسيح، الذي وعدنا بالنصرة عندما قال لنا:

فَإِنَّهُ حَيْثُمَا اجْتَمَعَ اثْنَانِ أَوْ ثَلاَثَةٌ بِاسْمِي، فَأَنَا أَكُونُ فِي وَسَطِهِمْ. (متى 18: 20)

ولا يؤمن الكثير من المسيحيين بواقع وحقيقة هذه المعركة، دع عنك واقع الشرّ. فلن ينفعهم هذا الكتاب

شـيئا. إلا أن هـذا الكتـاب مفيـد للذين قد عرفـوا الخطيئة واقترفوهـا وتلوثـوا بهـا، ويسـعون جاهديـن للتحـرر مـن أعبائهـا، ويشـتاقون إلى عِفّـة ونقـاوة القلـب.

أما بالنسبة إلى موضوع هذا الكتاب «الأفكار الأثيمة» فهو ليس موضوعا مرغوبا فيه أو مسايرا للحياة المعاصرة؛ لكني رأيت خلال سنوات عديدة آلافا من الناس يصارعون الأفـكار الأثيمـة. ولـو تمكَّن هـذا الكتاب من إرشـاد مجرد واحـد منهـم إلى التحرر الذي يهبـه الصليب، لأمكننا القول أنـه قد وفّى بالهدف المرجو منه.

2

التجربة

أين تنتهي حـدود التجربة[1] وتبـدأ الخطيئة؟ بطبيعة الحـال، لـو كنـا نتعـذّب مـن جـراء الأفكار الشريرة التي تنتابنا أو كان الشـيطان يحاول إغوائنا بها لما احتُسِبت هذه العملية اِقتراف خطيئة من جانبنا. ونضرب مثالا على ذلك، فلو أحسسـنا باندفاع للرد بغضب على من أخطأ بحقنا لكن تشدَّدت عزيمتنا بعد ذلك على مسامحته، فلم نقترف خطيئة هنا. لكن لو رفضنا مسامحته ولم نرغب في نسـيان الأذى الـذي لحـق بنا بل تشـبثنا بـه وأضمرنا له ضغينـة في صدرنا، لاقترفنا خطيئة.

وعلى الغرار نفسـه، فلو تهيّجنا بسـبب فكرة شهوانية لكـن رفضناهـا، فلـم نقـترف خطيئـة في هذه الحالـة. لكن يختلـف الحـال كثـيرا إذا تابعنا تلك الفكـرة بمحض إرادتنا،

(1) التجربة هي إغواء إبليس ومحاولات شـياطينه للإيقاع ببني البشر في الخطيئة لكي يقترفوا الذنوب فعليّا سـواء كانت في الفكر أو في الفعل.

واشـترينا مجلـة إباحية خليعة على سـبيل المثال.

فالسؤال دائما هو: ماذا نفعل عندما تأتينا التجارب؟

لقـد كتـب مـرة المُصلِح الكنـسي الراهب مارتـن لوثر Martin Luther في القـرن الميـلادي السـادس عـشر أن:

> الأفـكار الشريـرة تأتينـا مثـل العصافـير التـي تطـير وتحوم فوق رؤوسـنا. فليس في يدنا أية حيلة حيال ذلـك. لكـن لو سـمحنا لها بـأن تبني أعشاشـها على رؤوسـنا، لتحملنـا عندئذ مسـؤولية إيوائها.

وبالنسـبة إلى التجـارب فـلا يمكـن تفاديها أبدا ولـن تتركنا بسـلام أبـدا؛ حتـى أننـا يجـب أن لا نتوقع هـذا الأمر على الإطـلاق، لأن الشـيطان لـن يتركنا بسـلام أبـدا. وقد حاول الشـيطان الإيقاع حتى بيسـوع المسـيح. فقد جـاء المُجَرِّبُ إبليس – الذي كان بالتأكيد متنكرا بغير هيئته – إلى البرية حيث كان السـيد المسـيح قد صام أربعين يوما منقطعا عن شـتى أنواع الأكل والشرب، وأخذ إبليس يتكلم مع السـيد المسـيح مسـتعينا بآيـات مـن الكتـاب المقـدس في محاولـة لإغوائـه والإيقاع به، لكن لم يعرفه يسـوع المسـيح إلا بعد التجربـة الثالثة، فقال يسـوع له:

إِبتَعِدْ عنّي يا شَيطانُ! لأنَّ الكِتابَ يقولُ: للرّبِّ إلهِكَ تَسجُدُ، وإيّاهُ وحدَهُ تَعبُدُ! (متى 4: 10)

فلما رأى إبليس أن السيد المسيح عرفه، تركه؛ فجاء بعض الملائكة يخدمون السيد المسيح ويقدمون له الطعام. (راجع متى 4: 1–11)

لقد بدت لي سابقا في إحدى المرات فكرة تَعرُّض يسوع المسيح إلى التجربة مثل أي إنسان عادي وكأنها تجديف على الله. لكن بالحقيقة لا مجال للشك أبدا: فقد كان يسوع المسيح إنسانا، بالرغم من أنه لم يقترف الخطايا مطلقا، لأنه كان معصوما منها. واستيعاب هذا الموضوع له أهمية بالغة، لحياتنا الروحية من جهة، لكن له دور كبير أيضا في كيفية معاملتنا للناس الآخرين الذين يخوضون صراعات روحية شرسة، مثلما نتعلمه من الإنجيل:

إِذَنْ، بِمَا أَنَّ هَؤُلاَءِ الأَوْلاَدَ مُتَشَارِكُونَ فِي أَجْسَامٍ بَشَرِيَّةٍ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ، اشْتَرَكَ الْمَسِيحُ أَيْضاً فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ بِاتِّخَاذِهِ جِسْماً بَشَرِيّاً. وَهَكَذَا تَمَكَّنَ أَنْ يَمُوتَ، لِيَقْضِيَ عَلَى مَنْ لَهُ سُلْطَةُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ، وَيُحَرِّرَ مَنْ كَانَ الْخَوْفُ مِنَ الْمَوْتِ يَسْتَعْبِدُهُمْ طَوَالَ حَيَاتِهِمْ. نَعَمْ، كَانَتْ غَايَتُهُ أَنْ يُنْقِذَ لاَ الْمَلاَئِكَةَ بَلْ نَسْلَ إِبْرَاهِيمَ. وَلِذَلِكَ كَانَ

لاَبُـدَّ أَنْ يُشْـبِهَ إِخْوَتَـهُ مِنْ جَمِيـعِ النَّوَاحِي، لِيَكُونَ هُـوَ رَئِيـسَ الْكَهَنَـةِ، الرَّحِيـمَ وَالأَمِـينَ، الَّـذِي يَقُومُ بِعَمَلِـهِ أَمَـامَ اللـهِ نِيَابَـةً عَـنِ الشَّـعْبِ، فَيُكَفِّـرَ عَنْ خَطَايَاهُـمْ. وَبِمَـا أَنَّـهُ هُوَ نَفْسَـهُ، قَدْ تَأَلَّـمَ وَتَعَرَّضَ لِلتَّجَـارِبِ، فَهُـوَ قَـادِرٌ أَنْ يُعِـينَ الَّذِيـنَ يَتَعَرَّضُـونَ لِلتَّجَـارِبِ. (عبرانيـين 2: 14–18)

وكان يهـدف كاتـب الرسـالة الإنجيليـة إلى أن تكـون هذه النقطـة واضحـة للقارئ، بحيث أنـه ذكرها ثانية في الفصل الرابع عـدد 15 كالآتي:

ذَلِـكَ لأَنَّ رَئِيـسَ الْكَهَنَةِ الَّذِي لَنَا، لَيْسَ عَاجِزاً عَنْ تَفَهُّـمِ ضَعَفَاتِنَـا، بَلْ إِنَّهُ قَدْ تَعَـرَّضَ لِلتَّجَارِبِ الَّتِي نَتَعَـرَّضُ نَحْـنُ لَهَـا، إِلاَّ أَنَّـهُ بِـلاَ خَطِيَّـةٍ. (عبرانيـين 4: 15)

أن يسـوع المسـيح لم يخطـئ مطلقـا، حتـى عنـد أشرس معركـة خاضهـا في حياتـه – عنـد بسـتان يدعى جثسـيماني الذي يقع شرق أورشليم قرب سفح جبل الزيتون – حيث كان بالتأكيد يصارع قوى الظلمة التي هي أكبر من قدرتنا لنتصورهـا، التي جاءته بجيوش كاملة من الأرواح الشريرة التي كانت تقاتل في سبيل الفوز بقلبه واستمالته – لكنه لم ينحرف مطلقا عن محبته لأبيه السـماوي. فقد ظلّ مطيعا

ووفيا له.

وبالنسبة إلينا نحن البشر، فسوف يظلّ الصراع الروحي ضد الظلمة موجودا في قلوبنا ما دمنا على قيد الحياة. وهذه هي الحقيقة المريرة التي تعني أننا لا يسعنا أبدا التغلب على الشر المحدق بنا ومضايقاته بقوانا البشرية. والمسألة ليست مجرد مسألة أفكار ومشاعر وصور فحسب بل أرواح محارِبة – وقد دعاها القديس بولس الرسول في الإنجيل بأنها: «أصحابَ الرِّئاسَةِ والسُّلطانِ والسِّيادَةِ» في هذه الآية:

> فنَحنُ لا نُحارِبُ أعداءً مِنْ لَحمٍ ودَمٍ، بَلْ أصحابَ الرِّئاسَةِ والسُّلطانِ والسِّيادَةِ على هذا العالَمِ، عالَمِ الظَّلامِ والأرواحِ الشِّرِّيرَةِ في الأجواءِ السَّماوِيَّةِ. (أفسس 6: 12)

وسوف نحتاج إلى الصلاة من أجل أن يسترنا الله مرة بعد أخرى؛ وحينما تأتينا التجارب بالرغم من صلواتنا، فينبغي أن نسأل الله ليرينا حلًّا ومخرجا من كل واحدة منها. ومع ذلك فلا داعي لأن تخور عزيمتنا ونفقد الأمل ونقع في اليأس، مثلما يشهد لنا الإنجيل:

> لَمْ يُصِبْكُمْ مِنَ التَّجَارِبِ إِلاَّ مَا هُوَ بَشَرِيٌّ. وَلَكِنَّ اللهَ

أَمِينٌ وَجَدِيرٌ بِالثِّقَةِ، فَلاَ يَدَعُكُمْ تُجَرَّبُونَ فَوْقَ مَا تُطِيقُونَ، بَلْ يُدَبِّرُ لَكُمْ مَعَ التَّجْرِبَةِ سَبِيلَ الْخُرُوجِ مِنْهَا لِتُطِيقُوا احْتِمَالَهَا. (1 كورنثوس 10: 13)

لن يتعين على أي منا خوض مثل تلك المعركة الشرسة والعصيبة التي قاتل فيها يسوع المسيح في سبيلنا على الصليب. فقد أخذ على عاتقه في تلك المعركة العبء الكامل لحالنا البشري، ومن ضمنه التجربة، في سبيل تحريرنا بالفداء المجاني الذي قدّمه لبني البشر. فالتجربة ليست خطيئة.

3

الخطيئة المُتعمَّدة

عندما يتعذب المرء بسبب الأفكار والصور غير المرغوب فيها فهو أمر يختلف تماما عن السعي من أجلها عمدا. فالناس الذين يشاهدون عمدا أفلام العنف أو يقرؤون المجلات والمواقع الإباحية الخليعة من أجل المتعة التي تمنحها لهم هذه الأمور فهم ببساطة لا يصارعون التجربة وإغواء إبليس، بل إنهم يقترفون الخطيئة بالحقيقة. وأنا أفترض بأن القارئ لا يبتغي تلك الأمور التي يعلم بأنها شريرة!

فعندما نستمتع بفكرة شريرة بمحض إرادتنا، فإننا نعبث بقوى الظلمة التي ربما لا ندرك مدى قوتها. فمن السهل على الناس (وهو أمر مألوف) أن لا يهتموا بهذه الفكرة وأن يقولوا: «إننا لا نؤذي بها أحدا، أليس كذلك؟» أو أن يقولوا: «إنها مجرد في الفكر. . . . » إلا أن القول الإنكليزي المأثور: «الأفكار عملاقة» (أي أن

الأفكار ذات تأثير جسيم) لم يأتِ من فراغ. فبصورة عامة تسعى الأفكار جاهدة من أجل أن تتجسّد فعليّا على أرض الواقع بالأفعال، أما لو كانت أفكارا شريرة فسوف تؤدي إلى أعمال شريرة. كما كتب القديس يعقوب الرسول في الإنجيل:

> وَلَكِنَّ الإِنْسَانَ يَسْقُطُ فِي التَّجْرِبَةِ حِينَ يَنْدَفِعُ مَخْدُوعاً وَرَاءَ شَهْوَتِهِ. فَإِذَا مَا حَبِلَتِ الشَّهْوَةُ وَلَدَتِ الْخَطِيئَةَ. وَمَتَى نَضَجَتِ الْخَطِيئَةُ، أَنْتَجَتِ الْمَوْتَ. (يعقوب 1: 14–15)

والأعمال الفظيعة المروّعة مثل الإبادة الجماعية التي تُرتكب بحق الناس لا تحدث بين ليلة وضحاها؛ إنها ثمرة الشر الذي بدأ يعمل سلفا في الذهن. فقد سبق مجازر اليهود على سبيل المثال، قرون طويلة من التحامل الظالم والافتراء على اليهود، دع عنك حملات التقتيل والذبح المنظمة التي كانوا يتعرضون لها بين فترة وأخرى وأيضا الاضطهاد بشتى أنواعه.[1] أما أعمال الشغب التي اجتاحت المدن الأمريكية الكبيرة في الستينيات، فهي الأخرى كانت نتيجة لتراكم الكثير من الأحقاد العنصرية المكبوتة على

(1) وهذا ما حصل عند اعتداء اليهود على الفلسطينيين أيضا وعند اعتداء الإسلاميين المتطرفين على المسيحيين والأقليات الأخرى لاسيما ما اقترفه وما زال يقترفه داعش أو تنظيم الدولة الإسلامية في مناطق عديدة من العالم.

مـدار مئات السـنين. وقد أظهرت دراسـات متعاقبة كثيرة، أن هنـاك صلـة وثيقة بين جرائم العنـف الجنسي والأفلام، التـي يعـترف مقترفوهـا بأنهـم شـاهدوها قبيـل تنفيذهم لهـذه الجرائـم. وإن مثل هذه الجرائم التي تسـمى جرائم مُقلِّـدة Copycat Crimes (وهـي جرائـم تُقـترف اقتـداء بمـا يرونـه في الأفـلام أو الروايـات) تبـيّن لنا بشـكل صارخ وأسـطع من نور الشـمس أن الأعمال المشـينة لها جذور في القلب والفكر.

وعندمـا كنتُ شـابا كنـتُ أعرف أشـخاصا ألمانيين من بلـدي كانـوا غير مؤذين إلى درجة كبـيرة قبل قيام النازية – نـاس «عاديـون» ذوو خُلـق «حسـن» – لكنهـم وقعـوا لاحقـا في براثن روح شريرة فسـاقتهم تلـك الروح النازية الشريـرة إلى طريـق الشرّ. وبالرغم مـن أن الكثيرين ماتوا بسبب احتجاجهم على ذلك الشرّ، إلا أن الغالبية العظمى مـن النـاس سـلموا أنفسـهم إليهـا بكامـل رغبتهم، سـواء كان ذلـك عـن طريق الاشـتراك الفعال بالمجـازر الجماعية بحـق اليهـود أو عـن طريـق دعم هتلـر بأسـاليب أخرى، حتـى لـو كان مجـرد عـن طريق اللامبـالاة الصامتـة. فلم تكـن المسـألة مجرد سـيطرة حفنة مـن الرجال على كامل البلـد – ألمانيـا – فحسـب، بـل قامـت الملايـين مـن الناس بتسـليم نفوسـها بكامل رغبتها إلى قوى الظلام الشيطانية (المتمثلة بالنظـام النازي).

بطبيعة الحال، غالبا ما تحصل الخطيئة المتعمدة على الصعيد الشخصي بدرجة كبيرة. وأكثر ما يقلقني كقسيس هو موضوع التنجيم أو معرفة أسرار ما وراء الطبيعة، الذي صادفته كثيرا أثناء تقديمي لخدمة المشورة. فعادة ما يُنظر إلى التنجيم على أنه مجرد أحد العلوم الذي يحتاج إلى دراسة. ولما كانوا يفترضون التنجيم أنه ضرب غير مضرّ من الروحانيات مثلما يفترضونه عن ممارسة الخرافات مثل ارتداء الخواتم الطبية، أو وقوع واهتزاز الطاولة أثناء تحضير الأرواح، أو التحدث مع الموتى، فيمكن لهذه الممارسات أن تربط الشخص بقوى شيطانية حتى لو دخلها الشخص دخولا بريئا. وأنا أؤمن إيمانا راسخا بوجوب رفضنا لهذه الأشياء رفضا تاما. فهذه الأشياء لا تمت بصلة إلى الإيمان الطفولي البسيط بيسوع.

أنا أعلم بوجود ناس يدرسون الشرّ - وآخرين يحاولون اكتشاف جذوره بالإضافة إلى محاولاتهم لكشف النقاب عن أسرار الشيطان. وقد يكون هذا الأمر مفهوما، لكن، هل هو أمر يوافق مشيئة الله؟ وثم يبدو لي في مجتمعات بلادنا أن هناك الكثير من الرجال والنساء من الذين قد ثقّلوا كواهلهم بما يعرفونه عن جرائم القتل والزنى والخطايا الأخرى.

ويعبث الآخرون بمحض إرادتهم مع الشرّ تحت شعار

تجريب الأمر. ويحاول هؤلاء الناس بالحقيقة أن يفهموا حجج الشر وذرائعه؛ ويدّعون بأنهم يرفضون قبول الظلمة، لكنهم من خلال اللهو به، تراهم واقعين في براثنه وقعة غير مسبوقة وأكثر مما يتصورون.

فما دمنا نسمح لنفوسنا بإبقاء منفذ صغير يدعم ترددنا وعدم إيماننا القطعي – وما دمنا نعطي للشر حتى ولو سيادة قليلة وجزئية على قلوبنا ولا نقاطعه كليا، فلن نتحرر أبدا تحررا كاملا؛ وسوف يستمر إبليس في فرض سلطانه علينا. ولا أتكلم هنا عن موضوع التنجيم فقط، بل عن كل ما يعاكس الله: مثل الغيرة والحقد والشهوة والرغبة في التسلط على الآخرين وجميع الخطايا الأخرى. وما دمنا نسرق عمدا جزءا من قلوبنا حتى لو كان صغيرا ونحجبه عن تدخل الله في حياتنا، فإننا نعزل أنفسنا بذلك عن الرحمة التي يقدمها الله إلينا من خلال يسوع المسيح.

ويجب بطبيعة الحال معاملة النفوس المنقسمة على ذاتها أو المترددة أو المرتابة معاملة رؤوفة – كما يفعل ذلك يسوع نفسه، حيث أنه «قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَكْسِرُ، وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِيءُ،» (راجع متى 12: 20) لكن من ناحية أخرى، فمن الواضح بحسب اعتقادي، أن يسوع المسيح في النهاية لا يمكنه أن يتسامح مع كل ما يُحزِن الروح القدس. فالرب يسوع المسيح كان وما

يـزال منتصرا عـلى إبليس وشـياطينه انتصـارا كاملا، وهو يطلـب منـا أن نخـدم من كل قلوبنا حتـى لو كنا في حرب ضارية مع الشـياطين.

4

الإرادة البشرية

ماذا بوسعنا عمله لإزالة الشرّ المخيّم على رؤيتنا الروحية في صراعنا ضد التجربة وإغواء إبليس، ذلك الشرّ الذي يعمينا عن رؤية ما هو حقّ وما هو باطل؟ وكيف يمكننا التركيز على محبة الله التي ننشدها؟ نحن نعلم أن من يفوز في حلبة الملاكمة أو في الشارع قد يكون من هو صاحب الإرادة القوية والمتعنتة والمتصلبة؛ لكن في صراع قلب الإنسان، ربما لا تلعب قوة الإرادة أي دور في نتيجة المعركة.

فمن المستحيل قهر الطبيعة الأثيمة لأي شخص بقوة الإرادة وحدها، لأن الإرادة ليست متحررة بصورة كاملة مطلقا، فهي منحرفة لأنها متأثرة باتجاهات مختلفة من جراء مشاعر متضاربة ومن جراء قوى أخرى تعمل فيها وتؤثر عليها. ففي الصراع الروحي تغدو الإرادة البشرية «مشلولة» إلى درجة كبيرة كما يصفها الفلاسفة الألمان،

فمحاولة تسخير الإرادة البشرية في ذلك الصراع لا جدوى منها بتاتا. وفي الحقيقة والواقع، فقد تؤدي الإرادة إلى الترسيخ الذهني لذاك الشر المُعيّن الذي نكافح للتغلب عليه حتى أن الإرادة بحد ذاتها تعمل على توجيه ذاك الشر بالذات ليغدو واقعا ملموسا. ونقرأ عن هذا الموضوع بحسب ما جاء عن الأخصّائي في علم الاجتماع السويسري – الفرنسي تشارلز بودوان Charles Baudouin:

> عندما تفرض فكرة ما نفسها على ذهن الإنسان لكي يقبلها. . . . فإن جميع الجهود الواعية التي يبذلها ذلك الشخص للتصدي لها لا تحقق النتيجة المرجوة منها في التحرّر من تلك الفكرة بل حتى أن هذه الجهود سوف تنقلب بالحقيقة وتسير بعكس الاتجاه وتزيد من حِدَّة إصرار الفكرة. . . . وتكون النتيجة أن الفكرة المهيمنة على ذهن الشخص تتقوّى.

وفي الإنجيل كتب القديس بولس الرسول الذي كان عالما بهذه المشكلة، فقال:

> وَلَستُ أعلَمُ ما الَّذي يَحْدُثُ لِيْ، لِأنِّي لا أفعَلُ ما أُرِيدُهُ، بَلْ أفعَلُ الأشياءَ الَّتِي أُبغِضُها! فَإنْ كُنتُ لا أُرِيدُ أنْ أفعَلَ ما أفعَلُهُ، فَإنِّي أُوافِقُ الشَّرِيعَةَ

عَـلَى أنَّهـا صالِحَةٌ. لَكِنِّي لَسـتُ أنـا مَنْ يَفعَـلُ هَذِهِ الأُمُـورَ فِيما بَعْدُ، بَلِ الخَطِيَّةُ السّـاكِنَةُ فِيَّ. (رومة 7: 15–17)

ربمـا يكـون مـن المفيـد هنا أن نميز بـين الإرادة والاشـتياق الجوهـري العميق لقلوبنا، الـذي هو: الضمير. ففي الوقت الـذي تتحـرك الإرادة ضـد التجربـة في محاولـة للتصـدي للتخيلات الفكرية والشـهوات، يشـير الضمـير (الذي كانت طائفـة الصحابيـين المسـيحية الأوليـة Quakers تسـميه بالنور الداخلي) يشير الضمير علينا بنقاوة القلب الحقيقية. فالضمير هو مرشـد في صميم أعماق نفس الإنسـان، حيث يسـكن السـيد المسـيح نفسـه. وعندمـا يسـيطر الضمـير، فيمكـن التغلـب عندئذ عـلى أقوى تجربـة وأشرّها.

وعندمـا نتأمّل الحرب التي تشـنها هاتـين «الإرادتين» عـلى الأفـكار الأثيمـة (أي الإرادة والضمـير اللتـين كلتيهما تكرهـان الشرور)، فهناك سـؤال يظهر تلقائيا: من أين يأتي إذن كل هـذا الـشرّ غـير المرغـوب فيـه؟ وما هـو مصدره؟ والجـواب الوحيـد هو أننا يجب أن نقـر ونعترف بأنه يأتي مـن قلوبنـا. (ولا أعنـي هنـا إني أنكـر تعرضنـا في الغالـب إلى مداهمـة الـشرّ – بـل أريـد أن أحـذّر مـن أن المغـالاة بـدور إبليـس قـد يكـون أمـرا غير صائـب. لأنـه في النهاية، يجـب أن يتحمّـل كل منا مسـؤولية أفـكاره وأفعاله.) فلو

أدركنا ذلك لما صعب علينا فهم سبب عجزنا عن التغلب على الأفكار الشريرة بواسطة قوة إرادتنا البشرية فقط، فلذلك سوف نقرّ ونعترف بكل تواضع بأنه ليس بمقدورنا تنظيف وتطهير قلوبنا بقوانا البشرية وبأننا بحاجة إلى معونة الرب.

ونقول مرة ثانية أنه لو حاولنا التغلب ومحاربة الشرّ الذي في داخلنا بالاستعانة بقوة إرادتنا البشرية لوحدها فسوف يهزمنا الشرّ ونخسر المعركة بالتأكيد. ولنستمع إلى ما يقوله الأخصّائي في علم الاجتماع الفرنسي أميل كوي Emil Coué الذي هو زميل تشارلز بودوان: «لو كانت الإرادة في حرب مع المُخَيِّلة،[1] لرجَحت كفّة القتال لصالح المُخَيِّلة دائما.» لكن بمجرد أن ننصت للاشتياق الخالص والعميق للقلب الذي يصرخ ويستنجد بيسوع، فسوف يتراجع الشرّ الذي في داخلنا، ولو وثقنا في مشيئة الله السامية وصلينا هذه الصلاة التالية: «يا يسوع، لتكن مشيئتك لا مشيئتي: فنقاوتك أعظم من نجاستي؛ وكرمك سيتغلب على طمعي؛ وحبك سينتصر على كراهيتي،» لتلاشت تدريجيا كل هذه الأفكار الأثيمة بأجمعها.

(1) المُخَيِّلة هي القدرة الفطرية في العقل البشري لخلق أفكار أو صور عن عوالم غير واقعية دون مداخلات مباشرة من الحواس، مثل الرؤية أو السمع.

فلابـد لنـا مـن أن نؤمن: بأن يسـوع وفيّ حقا لنا، حتى لـو كنـا غير أوفياء له، وبأنه ليس مجـرد مُخلِّص إلهي بعيد عنـا يصلنا من الأعالي، لكنه أيضا إنسـان مات على الصليب «بالضعـف البشري» ويعيـش الآن «بقدرة الله،» كما كتب القديس بولس الرسـول في الإنجيل:

فَمَـعَ أَنَّـهُ قَدْ صُلِبَ فِي ضَعْـفٍ، فَهُوَ الآنَ حَيٌّ بِقُدْرَةِ اللـهِ. وَنَحْـنُ أَيْضـاً ضُعَفَـاءُ فِيـهِ، وَلكِنَّنَـا، بِتَصَرُّفِنَـا مَعَكُـمْ، سَـنَكُونُ أَحْيَـاءً مَعَـهُ بِقُـدْرَةِ اللـهِ. لِذَلِـكَ امْتَحِنُوا أَنْفُسَـكُمْ لِتَرَوْا هَلْ أَنْتُـمْ فِي الإِيمَانِ. اخْتَبِرُوا أَنْفُسَـكُمْ. أَلَسْـتُمْ تَعْرِفُـونَ أَنْفُسَـكُمْ، أَنَّ يَسُـوعَ الْمَسِـيحَ فِيكُـمْ، إِلاَّ إِذَا تَبَـيَّنَ أَنَّكُـمْ فَاشِـلُونَ؟ غَـيْرَ أَنِّي أَرْجُـو أَنَّـهُ سَـيَتَبَيَّنُ لَكُـمْ أَنَّنَا نَحْنُ لَسْـنَا فَاشِـلِينَ. وَنُصَـلِّي إِلَى اللـهِ أَلاَّ تَفْعَلُوا أَيَّ شَرٍّ، لاَ لِـكَيْ يَتَبَيَّنَ أَنَّنَا نَحْـنُ فَاضِلُونَ، بَلْ لِكَيْ تَفْعَلُوا أَنْتُمْ مَا هُوَ حَقٌّ، وَإِنْ كُنَّـا نَحْـنُ كَأَنَّنَا فَاشِـلُونَ. فَإِنَّنَا لاَ نَسْـتَطِيعُ أَنْ نَفْعَلَ شَـيْئاً ضِـدَّ الْحَقِّ بَـلْ لأَجْلِ الْحَقِّ. وَكَـمْ نَفْرَحُ عِنْدَمَا نَكُـونُ نَحْنُ ضُعَفَـاءَ وَتَكُونُونَ أَنْتُمْ أَقْوِيَاءَ؛ حَتَّى إِنَّنَا نُصَـلِّي طَالِبِـينَ لَكُـمُ الْكَـمَالَ. (2 كورنثـوس 13: 4–9)

5

قوة الإيحاء الخارجي

وجدتُ في مكتب والدي، ايبرهارد آرنولد Eberhard Arnold [1] بعد مدة قصيرة من وفاته على مجلّد قديم أصفر اللون باللغة الألمانية للأخصّائي في علم الاجتماع السويسري - الفرنسي تشارلز بودوان. وكان الكتاب يحمل عنوان «الإيحاء والإيحاء الذاتي Suggestion und Autosuggestion» الذي كنت أقرأه في أغلب الأحيان حينما كنت أخوض غمار موضوع الأفكار الثقيلة على الضمير.

فهناك نوعان رئيسيان من الإيحاءات اللاإرادية التي تؤثر على سلوك الإنسان وتدفعه تلقائيا إلى تحويل فكرة معينة إلى عمل من دون أن ينتقدها أو يتأكد منها، أولا: إيحاء خارجي وثانيا: إيحاء ذاتي أو داخلي. فالإيحاء

(1) إيبرهارد آرنولد Eberhard Arnold هو مؤسس جماعة برودرهوف المسيحية التي تعيش مجتمعاتها حياة مشتركة وبتكريس حياتي كامل إسوة بالكنيسة الرسولية.

الخارجي يأتي من المحيط الخارجي الذي يعيش فيه الإنسان. أما الإيحاء الذاتي أو الداخلي فينبع من داخل مُخيِّلة الإنسان نفسه. وكلاهما يقومان بالإملاء على ذهن الإنسان ما يحملانه من أفكار وتوجُّهات، فيؤثران على تفكيره وسلوكه ويدفعانه إلى تجسيد تلك الأفكار والتوجهات فعليّا على أرض الواقع بدون أن يتحقّق ذلك الشخص منها. مثلما يقال أحيانا: «كان كلامه كله بإيحاء من زوجته.» وسوف نتناول في الفصل التالي الإيحاء الذاتي. أما في هذا الفصل فنتناول الإيحاء الخارجي أو كما يُعرف في أوساط علم الاجتماع بتسمية «الإيحاء» فقط.

فالإيحاء في نظر تشارلز بودوان قد يمكن تعريفه بإيجاز بأنه القوة التي تدفع فكرة ما لكي تتجسّد واقعيا بسبب تأثير مشاعر وصور دخلت إلى العقل الباطني من مصدر خارجي، فهو يكتب كالآتي:

> إن أية فكرة – سواء كانت عن المتعة أو الألم أو المشاعر – عادة ما تتحول فعلا إلى تلك المتعة أو إلى ذلك الألم أو إلى تلك المشاعر. . . . فمنظر الشمس الذي يثير فكرة الدفء، كافٍ أيضا لإضفاء إحساس الدفء؛ وعلى نقيض ذلك، يوقظ منظر الثلج وقراءة المحرار خارج المنزل فكرة البرد.

أن تأثير الإيحاء الخارجي يفرض نفسه علينا في كل يوم، وفي كل الأوقات: فكلنا معرضون إلى تأثيرات تأتينا من الناس الذين يعيشون معنا على سبيل المثال أو من الذين يشتغلون معنا. وهناك أيضا نوع من التأثير الإيحائي الذي هو أكثر مكرا وخباثة من غيره – لكن له القوة نفسها – ومصدره يكون عن طريق وسائط غير حيّة، مثل: الكتب والمجلات والجرائد التي نقرأها والاستعراضات والأفلام التي نشاهدها والموسيقى التي نسمعها ووسائل الدعاية والإعلان التي تنهال علينا يوميا.

فكل تلك الأمور المتنوعة من حوالينا التي نصادفها يوميا أثناء حياتنا تؤثر فينا بطريقة غير محسوسة وتجرفنا معها لنسير على خطاها من دون تفكير ومن دون أن ندري. وقد تكون تلك التأثيرات إما إيجابية وإما سلبية.

أما فيما يخص صراع الأفكار غير المرغوب فيها، فمن الضروري هنا أن ندرك أن قوة الإيحاء السلبي لها كامل الاقتدار أن تعمل ضد صوت الضمير للتغلب عليه وإسكاته. ونرى قوتها السلبية واضحة جدا وعلى نطاق أوسع في المعتقدات المعاصرة للناس في قضايا تُقسِّم البشر مثل قضية الإجهاض والشذوذ الجنسي، ونراها أيضا واضحة في توجّه سلوك المجتمع نحو العنف. وغالبا ما تهيّج هذه الأمور مشاعر قوية لدى الناس بحيث يصبح من المستحيل لهم

أن يتكلموا عنها تكلما موضوعيا ويفقدون المنطق السليم لأنهم تحت تأثير الأفكار الشريرة الموحاة من التأثيرات الخارجية. ويا للاختلاف الذي يمكن أن يحصل والتحسُّن الذي ننالـه لو استكشف كل واحد منا قلبه وتفحّص شخصيا هذه المعتقدات المعاصرة وهذه الآراء بدلا من أن تجرفنا وسائل الإعلام أو الخبراء بأقوالهم الخدّاعة الهشّة وبمنطقهم الذي يبهر العيون وليس القلوب والضمائر!

ربما نرى «روح العصر» (وتسمى بالألمانية zeitgeist) بأشدّ وضوحها في ظاهرة قلّة الحياء التي يتسم بها زماننا. فهي تبين نفسها في الملابس والكتب والمجلات والفنون والموسيقى - من خلال تعابيرها الخالية من الوحدة الروحية مع الله والمنفصلة عن الخالق، ومن خلال استعطافها وتشجيع أدنى الغرائز البشرية وأوطأ القيم البشرية وأحقرها. ويمكن رؤيتها أيضا بمستوى أعمق في أماكن أخرى: مثل طبيعة الحكومات والفساد الإداري فيها والفساد التجاري في الشركات، وفي تفكك الأسر والعلاقات الشخصية، وفي المدارس والجامعات، وفي وسائل الإعلام، وفي عالمي الطب والقانون، والأسوأ من كل هذا، نراها في فراغ ورياء الغذاء الروحي الذي تقدمه كنائس كثيرة جدا.

أن موقف يسوع المسيح تجاه كل هذه الأمور واضح جدا: فهو يدين «روح العصر» وهو يفضحها بأنها

روح الشيطان: «الْمُشْتَكِي الَّذِي يَتَّهِمُ إِخْوَتَنَا أَمَامَ إِلهِنَا لَيْلاً وَنَهَاراً.» (رؤيا 12: 10)، وهو «مِنَ الْبَدْءِ كَانَ قَاتِلاً لِلنَّاسِ.» (يوحنا 8: 44) وبهذا فهو يدعونا إلى أن نسأل أنفسنا هذا السؤال:

أين هو صوت الله الوديع والهادئ في وسط كل انقسامات زماننا المعاصر وضجيجه؟

6

قوة الإيحاء الذاتي

الإيحاء الذاتي على النقيض من الإيحاء الخارجي مثلما شرحنا ذلك في الفصل السابق. فهو ينبع من مُخيِّلة الإنسان ذاته. وقد وصفه الأخصّائي في علم الاجتماع السويسري – الفرنسي تشارلز بودوان كما يلي:

> الإيحاء الذاتي هو عملية إصدار قوة انعكاسية للمُخيِّلة من داخلها وبصورة تلقائية ردّا على عوامل مؤثرة خارجية.

وقد يبدو الإيحاء الذاتي كقوة ووسيلة إيجابية مفيدة في العلاج الاجتماعي عندما يساعدنا إلى حد ما على إحلال الصور الذهنية «الجيدة» محل «السيئة.» أما وفقا لما رأيته من تجارب فأن العملية لا تجري دائما بهذه السهولة. فالخوف من فكرة شريرة معينة يلعب أحيانا – هو

نفسه – دورا في تحريك تلك الفكرة واستدعائها لتحتل مكان الصدارة في الذهن فتهيمن تلك الفكرة على التفكير ويزداد الاضطراب الداخلي، ويزيد الطين بلَّة. وهذا هو إيحاء ذاتي أيضا لكن من النوع السلبي. فبذلك، يمكن أن نثير أعصابنا، حتى لو لم نكن نريد ذلك، ونغدو في حالة فظيعة من الشدّ النفسي بحيث لا يعود في إمكاننا رؤية مخرج منها، عندئذ نفقد قابليتنا على رؤية الله بل نفقد عزيمتنا أيضا على الفوز بالصراع الروحي وحصولنا على النصرة والهدوء الروحي.

ويؤثر الإيحاء الذاتي على مجالات أخرى من الحياة أيضا. فكل من تعلم قيادة دراجة هوائية يتذكر كيف كان يبذل قصارى جهده لتركيز ذهنه على قيادة الدراجة باتجاه الجانب الآخر من الطريق لتحاشي حفرة أو جدار، لكن مع ذلك ينتهي الأمر به في الحفرة أو بالجدار. فلماذا يحصل ذلك؟ فعلى الرغم من جميع جهود إرادتنا وتصميمنا على تجنب المصيبة، نرى أن شعور عدم إمكانية تجنب المصيبة ينتابنا عن طريق الإيحاء الذاتي، (أو هل هو بسبب تركيزنا الشديد يا ترى؟)

ويوضح الأخصّائي بودوان هذه المشكلة في الفقرة التالية حيث يشير إلى جسامة درجة الإجهاد النفسي – وإلى بعض الإخفاقات – الناتجة عن محاولة التغلب

على بعض الأفكار غير المرغوب فيها بالاستعانة بأفكار أخرى فيقول:

يخشى شخص أن لا يعود في إمكان ذهنه أن يتذكر اسما معروفا؛ وتراه مصدوما من عصيان ذاكرته له. فيقوم ذهنه لا إراديا ولا شعوريا بصياغة إيحاء، مما يزيد من فقدانه للذاكرة. وكلما زاد من إجهاد نفسه في محاولة أخرى ليتذكر الاسم ثانية، غاص أكثر في النسيان. . . .

فنرى هنا شعورا جديرا بالملاحظة وهو كلما زاد إجهادنا، زاد هروب الاسم عن ذاكرتنا. ويبدو أن كل مجهود إضافي جديد يزيد من عتمة مياه ذاكرتنا أكثر فأكثر، وكأن به يقوم بتحريك طبقات مترسبة ثخينة جدا من الطين تسكن في القاع؛ وفي النهاية تصبح الذاكرة معتمة كليا، ولا نرى أي شيء آخر بعد ذلك. لأن ما يثير العجب هو أن الاسم كان على طرف لساني مجرد قبل دقيقة واحدة؛ أما الآن فضيّعته مرة ثانية.

فكيف تحصل حالات فقدان الذاكرة كهذه؟ لنفترض أن حالة سهو الذاكرة المذكورة أعلاه والمصحوبة بخيبة أمل ممزوجة باستياء (التي ربما لا نلاحظها على أنفسنا) صارت تتكرر عدة مرات. فما يحصل هو أن فكرة تصدر في الحال

عن مُخيِّلتنا وتخبرنا برسالة تقنعنا بها ومفاد هذه الرسالة أن ذاكرتنا آخذة بالضعف. لذلك سوف يسوء حالنا بالحقيقة ويتدهور، لمجرد أننا فكرنا بهذا الأسلوب، لأن هذا النسيان خلّف انطباعا قويا فينا، ولأن انتباهنا تمسك بفكرة النسيان ولعب دورا في هذه المشكلة.

مما لا شك فيه أن كثيرا من الأشياء تدخل أذهاننا كبذور لأفكار غير متبلورة وتستمر في العمل والتبلور والنمو في عقلنا الباطني لمدة طويلة من بعد استبعادنا لها من بالنا وانتباهنا. ومثال على ذلك الخيال غير المرغوب فيه، لاسيما الخيال الجنسي، الذي يعتري كل شخص من وقت لآخر. وغالبا ما ينشأ خيال كهذا ويتطور في الأصل عن طريق مشاهدة صورة تشدّ انتباه الشخص لمجرد لحظة قصيرة. إلا أن الجانب الآخر من الموضوع هو أننا ينبغي أن نتذكر قصة يعقوب في العهد القديم، الذي فرّ هاربا من تهديد أخيه له بالقتل، لكنه أبقى قلبه مركّزا على الصلاة لله فإذا الله يباركه بأروع حلم في الوجود، فلنقرأ الكتاب المقدس:

أَمَّا يَعْقُوبُ فَتَوَجَّهَ مِنْ بِئْرِ سَبْعٍ نَحْوَ حَارَانَ، فَصَادَفَ مَوْضِعاً قَضَى فِيهِ لَيْلَتَهُ لأَنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ قَدْ غَابَتْ، فَأَخَذَ بَعْضَ حِجَارَةِ الْمَوْضِعِ وَتَوَسَّدَهَا وَبَاتَ هُنَاكَ. وَرَأَى حُلْماً شَاهَدَ فِيهِ سُلَّماً قَائِمَةً عَلَى

الأَرْضِ وَرَأْسُهَا يَمَسُّ السَّمَاءَ، وَمَلاَئِكَةُ اللهِ تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ عَلَيْهَا، وَالرَّبُّ نَفْسُهُ وَاقِفٌ فَوْقَهَا يَقُولُ: «أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحقَ. إِنَّ الأَرْضَ الَّتِي تَرْقُدُ عَلَيْهَا الآنَ أُعْطِيهَا لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ، الَّتِي سَتَكُونُ كَتُرَابِ الأَرْضِ، وَتَمْتَدُّ غَرْباً وَشَرْقاً، وَشِمَالاً وَجَنُوباً، وَتَتَبَارَكُ بِكَ وَبِذُرِّيَّتِكَ جَمِيعُ شُعُوبِ الأَرْضِ. هَا أَنَا مَعَكَ وَأَرْعَاكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ، وَأَرُدُّكَ إِلَى هَذِهِ الأَرْضِ. وَلَنْ أَتْرُكَكَ إِلَى أَنْ أَفِيَ بِكُلِّ مَا وَعَدْتُكَ بِهِ». ثُمَّ أَفَاقَ يَعْقُوبُ مِنْ نَوْمِهِ وَقَالَ: «حَقّاً إِنَّ الرَّبَّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَأَنَا لَمْ أَعْلَمْ!» وَاعْتَرَاهُ خَوْفٌ وَقَالَ: «مَا أَرْهَبَ هَذَا الْمَكَانَ! مَا هَذَا سِوَى بَيْتِ اللهِ وَهَذَا هُوَ بَابُ السَّمَاءِ». ثُمَّ بَكَّرَ يَعْقُوبُ فِي الصَّبَاحِ، وَأَخَذَ الْحَجَرَ الَّذِي تَوَسَّدَهُ وَنَصَبَهُ عَمُوداً وَصَبَّ عَلَيْهِ زَيْتاً، وَدَعَا الْمَكَانَ «بَيْتَ إِيلَ» (وَمَعْنَاهُ: بَيْتُ اللهِ) وَكَانَ اسْمُ الْمَدِينَةِ أَوَّلاً «لُوزَ». وَنَذَرَ يَعْقُوبُ نَذْراً قَائِلاً: «إِنْ كَانَ اللهُ مَعِي، وَرَعَانِي فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ الَّتِي أَنَا أَسِيرُ فِيهَا وَوَفَّرَ لِي طَعَاماً لِآكُلَ وَثِيَاباً لأَلْبَسَ، وَعُدْتُ بِسَلاَمٍ إِلَى بَيْتِ أَبِي، عِنْدَئِذٍ يَكُونُ الرَّبُّ إِلَهاً لِي وَيَكُونُ هَذَا الْحَجَرُ الَّذِي نَصَبْتُهُ عَمُوداً بَيْتاً لِلهِ، وَأَدْفَعُ عُشْرَ كُلِّ مَا تَرْزُقُنِي بِهِ.» (تكوين 28: 10–22)

وينبغي أن تكون السطور التي كتبها الأخصّائي بودوان

بمثابة تحذير لكل فرد فينا مما نملأ أذهاننا وقلوبنا منه، لاسيما قبل النوم. ولا أريد من هذا أن أدفع القارئ إلى المزيد من الهموم أو القلق على الذات؛ لأن هناك الآن ناس كثيرون جدا قد وقعوا سلفا فريسة للتحليل الزائد لنفسياتهم. إلا أن هناك دائما أمرا واحدا سليما ومفيدا للغاية وهو أن يتمكن المرء فعلا من التواجه مع نقائصه تواجها شخصيا مباشرا. أما القديس بولس الرسول فيذهب إلى أبعد من ذلك فيقول أن من يتفحّص نفسه ويحاسبها لن يُدان:

فلَو حاسَبْنا أَنْفُسَنا، لَما كُنَّا نُدان. (1 كورنثوس 11: 31)

أن أهم ما في الموضوع هو أن يكون الإيمان بالمسيح مصاحبا لعملية محاسبة الذات، لأن المسيح يريد تحريرنا من الخطيئة. فمن دون هذا الإيمان، سوف يأخذنا الانشغال بالذات إلى أن نبدأ بالتشكيك في جميع دوافعنا عند القيام بأي عمل ما، وأن نفقد أي أمل في إمكانية تغيّرنا وتحسّن حالنا. وأخيرا سوف يسبب لنا الانشغال بالذات اكتئابا كبيرا إلى درجة أنه يبعدنا كليا عن الله.

ومن كل ما ذُكر أعلاه، فإن النقطة الرئيسية التي أريد توضيحها هي أن فهم موضوع الإيحاء الذاتي ينبغي

أن يأخذنا إلى الإحساس بالمسؤولية، حتى لو كان هذا الفهم بسيطا أو غير كامل. فلو تسلحنا بهذه المسؤولية لأمكننا أن نسعى إلى إعادة بناء وترميم نقاط الضعف في حياتنا الروحية التي يهاجمنا الشيطان فيها، وبهذه الطريقة سوف نحرّر طاقاتنا من أجل تقديم أعمال المحبة وخدمة الآخرين من حوالينا باستمرار.

ولو استنزفنا كل جهودنا البشرية في تجنب حصول أي إخفاق في صراعاتنا الروحية، لما بقي عندنا أية طاقة لننظر خارج نطاق صراعاتنا – ولا أية طاقة لنحب ونخدم الآخرين. فهناك حلّ واحد فقط لا غيره ألا وهو: الانصراف عن همومنا والالتفات إلى الرب يسوع المسيح وإلى إخوتنا وأخواتنا في المسيح، وأيضا إلى معاناة أخينا الإنسان أينما كان. فلو فعلنا ذلك لرأينا أن الرب يسوع ما هو برب خالٍ من الرحمة، فلا داعي للعيش في خوف مستمر وتمحور حول الذات والانشغال الزائد بالذات. فالله إله محبة، وينعم بالأمل والحياة الجديدة لكل من يطلبه.

7

الوقوع أسير الأفكار

تنتاب معظم الناس بين فترة وأخرى حالات فكرية مزعجة ومُنغِّصة لحياتهم يتعذبون فيها وذلك بسبب وقوعهم أسرى لفكرة معينة تَعْلَقُ بأذهانهم ويعجزون عن التخلّص منها.

فقد تكون هذه الفكرة مجرد أغنية تدور في بالنا أو ترنيمة أو صورة سليمة أو غير ضارة، لكن حتى لو كانت أمورا إيجابية فسوف تبقى المشكلة نفسها، وهي: استياء وتدمير نفسي. أما عندما تكون هذه الفكرة شريرة فسوف يأخذنا عجزنا عن التخلص منها – رغم جميع محاولاتنا – إلى معاناة روحية كبيرة. وربما تكون هذه الفكرة الشريرة عند البعض مسألة حسد أو غيرة؛ في حين يتعذب البعض الآخر من جراء الظّنّ بالآخرين وعدم الثقة بهم أو من جراء أفكار الحقد؛ لكن يبدو أن هناك آخرين ما يزالون يصارعون الصور والأفكار الشهوانية بلا نهاية.

وقد رأينا كيف تأخذنا الهموم من أية فكرة نُبتلَى بها في اتجاه واحد لا غيره وهو دوامة من التخبّط والتدهور الداخلي، وهذا ما يحصل أيضا عندما نعقد آمالنا على أمور غير صحيحة ولا نستعين بالله بل نأمل التغلب عليها عن طريق التصدي لها بأفكار مضادة. وفي الواقع، فقد رأيتُ أن الذين يبذلون قصارى جهدهم ليقحموا عنوة في أذهانهم فكرا مسيحيا خالصا حتى لو كان فكرا شبيها بفكر المسيح قد ابتلوا أحيانا رغم ذلك بأشرّ الأفكار على الإطلاق، مثل أفكار التجديف على الله وأفكار القتل، وذلك لأن محاولاتهم قائمة على جهود بشرية بحتة.

فما العمل إذن؟ يوجد أمران ضروريان، بحسب خبرتي. الأول، يجب علينا أن نتذكر بأننا لسنا الوحيدين في مثل صراعنا هذا، لأنه من السهل علينا أن ننسى هذا، لاسيما عندما يطول صراعنا الروحي أو يستفحل. وبحسب ما رأيته خلال السنوات التي قدمتُ فيها المشورة الرعوية للناس، فأن الصراع الروحي أمر موجود على صعيد الكون كله. وربما يمكن التغلب عليه ولو جزئيا عن طريق أن يفتح الشخص المُعذب قلبه لشخص آخر يثق به ويتحدث معه، سواء كان قسيسا أو كاهنا أو شريك حياة أو مرشدا حكيما أو صديقا حميما.

ثانيا، يجب أن نبقى واثقين من وجود مخرج لهذه

الأزمة. لأنه وبمجرد استسلامنا لشياطين عدم الثقة بالنفس وشياطين الخوف، فنحن من الخاسرين سلفا في المعركة. ويكتب الأخصّائي في علم الاجتماع السويسري - الفرنسي تشارلز بودوان ما يلي:

> عندما يستمر تركيزنا في الوقوع أسير الأفكار مرة تلو الأخرى، فسوف يخيّل لنا أنه ليس بإمكاننا بعد الآن أن نصرف انتباهنا عن تلك الفكرة التي عَلَقنا بها. أما الشيء التالي الذي سوف يحصل فهو أن هذه الفكرة سوف تتجسّد إلى حدّ ما بحيث نعتقد بأنه من غير الممكن التحرّر منها بعد الآن. فنرى هنا أن الإيحاء آخذ بالعمل ليلعب دوره السلبي. وعند هذه المرحلة لا يمكننا في الحقيقة أن نفعل أي شيء لتحسين الوضع. لذلك نرى أننا قد قمنا شخصيا وبصورة لا إرادية تقريبا بخلق إيحاء العجز في داخل نفوسنا.

في نظري أن شعور الإنسان بالعجز أو بالشلل إزاء الشر يكون على الأرجح حالة قريبة من حالة المسّ الشيطاني، حتى أنها قد تكون مسّا شيطانيا بالفعل، أي بمعنى أن روحا شيطانية تسكن الشخص. لكن يجب التريث عند استعمال هذه الكلمة - لأن هناك حالة قد نشعر فيها أن الأرواح الشريرة قد استحوذت علينا، لكن مع ذلك لا

ندعها تستحوذ علينا كليا. أما الحالة التي يسميها الإنجيل بالمسّ الشيطاني فلا تشمل سوى حالة هيمنة قوة الشر على الشخص هيمنة كاملة وتستحوذ عليه تماما. ويجب أن نعلم بأن هناك اليوم الكثير من الناس في مثل هذه الحالة فعلا.

وفي عالمنا الذي يجري فيه تبرير كل شيء وتحليله بالاستعانة بطب النفس وبطب الأمراض العقلية، فعادة ما نستسهل استبعاد فكرة المسّ الشيطاني. وترانا لدينا تسمية طبية لكل مرض وأيضا دواء لكل مرض على ما يبدو. لكن مع ذلك هنالك عدد كبير جدا من الناس الذين لا يفيدهم طب الأمراض العقلية بشيء بتاتا! وقد تساءلت أنا شخصيا: ماذا سيحصل لو زار يسوع المسيح مستشفياتنا العقلية الطافحة بالمرضى؟ فكم مريضا سيراه ممسوسا بأرواح شريرة؟ وكم رجلا وامرأة سيراهما خارج نطاق قدرة الطب البشري، وبحاجة ماسة إلى لمسته المحرِّرة هو؟

وفي النهاية، تبقى حقيقة واحدة سارية المفعول، سواء كان الشخص ممسوسا بأرواح شريرة أو مجرد مدفوع بها، وهذه الحقيقة كالآتي: لا يوجد غير السيد المسيح من هو قادر بروحه القدوس على طرد الظلمة والحزن والخوف الساكن في ذلك الشخص. أما بالنسبة إلى البعض

منا من الذين ليسوا عندهم هذا العذاب الذي يسببه الوقوع في شباك الأفكار، فإن إدراك هذه النقطة لابد أن يوسِّع آفاقهم ويساعدهم على معاملة أولئك المكبلين بها معاملة صبورة ورؤوفة جدا. فنصيحتنا لشخص واقع في شراك صراع روحي هي الالتفات إلى السيد المسيح والسماح له بمسك مقود حياته الروحية بيديه وانتشاله من ذلك الشراك.

ولا نريد أن نصب اهتمامنا هنا على تصنيف الخطايا بل على الإقرار بالحقيقة وهي أن مكايد إبليس هي قوى حقيقية حقا. فهي سلاطين الظلمة وولاة العالم على ظلمة الدهر وأجناد الشرّ الروحية في السماويات التي كتب عنها كُتّاب إنجيل العهد الجديد. فلو أدركنا هذا فسوف نلتفت إلى كلام السيد المسيح الرائع بشأن نصرته الموعودة، فقد قال:

وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُ بِرُوحِ اللهِ أَطْرُدُ الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ. (متى 12: 28)

8

قمع الأفكار

على الرغم من أن بعض الأفكار الشريرة يمكن إبعادها بسهولة (أو التغلب عليها بصلاة قصيرة،) إلا أن هناك أفكارا أخرى يصعب كثيرا طردها. وفي حالة كهذه، أي عندما تستولي علينا أفكار شريرة وتخلق توترا روحيّا فينا، فغالبا ما يكون ردّ فعلنا الطبيعي عليها لحل المشكلة هو أن نقمعها ونكبتها بداخلنا: أي إرجاعها ودفعها إلى أعماق عقلنا الباطني في اللاوعي،[1] لغرض التخلّص منها بسرعة. غير أن هذه الطريقة لا تنجح أبدا. لأنه وبحسب ما بيّن لنا العلماء والباحثون مثل العالم فرويد وعدد لا يحصى من العلماء الآخرين، فإن أية فكرة محبوسة سوف تعود وتطفو دائما على السطح وتظهر ثانية، تماما مثلما تفعل القنينة الفارغة والمسدودة بفلينة عندما نغمسها إلى داخل الماء فنراها

(1) اللاوعي هو عقلنا الباطني الذي تتراكم فيه كل المؤثرات الخارجية سواء كانت إيجابية أو سلبية.

ترتفع ثانية وتطفو فوق سطح الماء بمجرد أن نتركها.

ولحلّ هذه المشكلة لا يوجد أي سبيل للتخلص من القنينة سوى أن نلتقطها ونرفعها من الماء كليا ونلقيها إلى خارج الماء برمته. أي بمعنى، أن أفضل طريقة مؤثرة ليتخلص ذهننا حقا من أي فكرة مقموعة لا تكون عن طريق تحاشيها أو تناسيها بل عن طريق التعامل مع الموقف ومواجهة الفكرة المقموعة مواجهة مباشرة ومن ثم رفضها، لكي نتخلص من التوترات والاضطرابات الروحية، حتى لو كانت هذه العملية مؤلمة ومليئة بالشدائد. أما الاستنتاج الذي خرج به فرويد لحل هذه المشكلة فلا أتفق معه بطبيعة الحال، حيث قال: «ينبغي أن يقلّل الشخص من التوتر النفسي عن طريق العمل بما تمليه عليه الفكرة المكبوتة وتطبيقها.» وسبب عدم اتفاقي معه هو أن بعض الأفكار قد تكون شريرة، ولا يجوز إطاعتها وتطبيقها فعليّا.

ولتوضيح آثار القمع أو الكبت الذهني، فقد استعان الأخصّائي في علم الاجتماع السويسري – الفرنسي تشارلز بودوان بصورة مَجازيّة أخرى، فقال:

عندما تسقط ورقة نباتية من أحد الأغصان في جدول ماء قبل جريانه إلى داخل جوف الأرض (أو

قد تكون ورقة نرميها نحن عمدا إلى ذلك الجدول). . . . سوف تخرج ثانية عند الفتحة الأرضية التالية، لأن الجدول الذي يجري تحت الأرض يحملها بأمانة وإخلاص إلى هناك، حتى أنها كانت في مأمن من أي تدخل خارجي عليها. وعلى المنوال نفسه، فإن أية فكرة يجري تقديمها إلى أذهاننا (أو نقدمها نحن بمحض إرادتنا) سوف تصنع تأثيراتها بعد مدة من التبلوُر قد تقصر أو تطول في العقل الباطني دون أن نعي بها.

أن الماء والورقة يرمزان إلى حياتنا الروحية. فعندما نخزن صورة أو فكرة إيجابية في قلوبنا، فسوف تبقى فينا وتعمل فينا لغاية ظهورها ثانية في مجرى الأفكار الإرادية. ويصح هذا الكلام أيضا لو آوينا صورة أو فكرة شريرة. فقد تكون تلك الصورة الشريرة أو الفكرة الشريرة محبوسة لمدة طويلة من قِبل العقل الباطني، لكنها تظهر فجأة، حتى أننا نبدأ نفهم عندما نتذكر بأن تأثيرها السلبي كان بالحقيقة قد بدأ تدريجيا بالظهور قبل مدة طويلة دون أن ننتبه إليه.

وفي عمل خدمة المشورة التي كنت أقدمها قابلت أشخاصا كانوا يعيشون في رعب كبير من الأفكار أو المشاعر الشريرة بحيث كانوا دائما يكبتون كل ما يراود

أذهانهم. وقد عاش بعض من هذه النفوس المسكينة في حالة من الشد النفسي بحيث كانوا يرتعبون حتى من فكرة التجربة بحد ذاتها، فكانوا يخشون كل يوم حتى من فكرة إمكانية تعرضهم للتجربة في ذلك اليوم: فكانوا يعيشون في خوف مستمر من حالتهم النفسية.

لا يمكن لأي إنسان أن يبقى معافى ذهنيّا لو كان في وضع مشحون وفي حالة نفسية متوترة كهذه لمدة طويلة. وهو بالحقيقة سرعان ما يغدو لا فرق بينه وبين المصاب بمرض العصاب، الذي تؤدي جميع محاولاته للتحرّر إلى زيادة تعقيده النفسي، أو بين المصاب بالفصام، الذي غالبا ما تؤدي محاولاته لمقاومة (أو التهرّب من) الأصوات أو الهلوسات إلى تقوية هذه الأوهام وتدهور حالته. ويمكننا الاستعانة بمثال آخر من الطبيعة لتوضيح النقطة كما يلي: فتشبه الحياة الروحية لشخص كهذا بالونا منفوخا زيادة عن اللزوم ما يؤدي إلى انفجاره في نهاية الأمر، مُطلِقا موجة كبيرة من الأفكار والمشاعر المكبوتة، كلها مرة واحدة.

ونقول هنا أيضا، بأنه لا يمكننا الحصول على أي عون روحي للخروج من هذا المأزق سوى عن طريق إدراكنا بأنه ليس بمقدورنا التغلب على أي صراع روحي بالاعتماد على قوة إرادتنا البشرية. لذلك يجب علينا أن نطمئن ونهدأ

نفسيا. فكل واحد منا يعرف بما في أعماقه وماذا يريد حقا وماذا يشتاق إليه، ثم أننا حتى لو أحسسنا بأننا مضطربون وغير مرتاحين نفسيا، لوجب علينا السعي إلى التركيز ثانية على ذلك الاشـتياق. أما الله فيحبنا ويريد مسـاعدتنا، حتى لو تعرضت هذه المحبة إلى مداهمة الشـكوك. فهو القادر عـلى مسـاعدتنا في التغلـب عـلى مخاوفنا. ويجـب أيضا أن نتذكـر أن محاولاتنـا في محاربة المشـاعر غير المرغوب فيها بالاسـتعانة بمشـاعر أخـرى إنما هي طريقـة لا تجدي نفعا. فلا يوجد أحد فينا قادر على إصلاح نفسـيّته بنفسـه، لكن يمكننـا أن نتـوكّل عـلى الله. فهو يعلم بمـا في صميم قلوبنا، ويقـدر أن يريّحها، مثلما يطمئننا الإنجيل:

> ويَجـيءُ الرُّوحُ أيضًـا لِنَجدَةِ ضُعفِنا. فنَحنُ لا نَعرِفُ كيـفَ نُصلِّي كما يَجبُ، ولكِنَّ الرُّوحَ يَشـفَعُ لَنا عِندَ اللهِ بأنّاتٍ لا تُوصَفُ. واللهُ الّذي يرى ما في القُلوبِ يَعرِفُ ما يُريدُهُ الرُّوحُ، وكيفَ أنَّهُ يَشفَعُ لِلقدِّيسينَ بِما يُوافِقُ مَشـيئتَه. (رومة 8: 26–27)

9

الإيمان بالمسيح

العلاج الوحيد للعذاب الروحي هو الإيمان بالله. وقد يبدو هذا الكلام مبالغا في تبسيطه، لكن الإيمان هو حقا الثغرة الوحيدة التي يمكن للنور الإلهي اقتحام حياتنا من خلالها ويوافينا بالشفاء والخلاص من الشرّ. والإيمان يشبه النعمة الإلهية التي وُهِبت إلينا بالمسيح، فهو سرّ عجيب وغير قابل للتفسير. وقد يبدو الإيمان في نظر الشخص الذي لم يختبر قدرته لحد الآن بأنه أمر بعيد عنه، حتى أنه يتعذّر تحقيقه.

ثم أن الإيمان لا يمكن اكتسابه بقرار من الإرادة الشخصية للإنسان: فهو هبة إلهية. لكن مع ذلك يمكن للإيمان أن يوهب لكل من يطلبه. كما يقول يسوع المسيح:

أُطْلُبُوا تَجِدُوا. (متى 7: 7)

فالنقطة المهمة هنا هي التوكُّل على الله. ولا يتوقف الإيمان على حجج منطقية – أو نظريات أو أنظمة لاهوتية أو تفسيرات فكرية أخرى. إنه معتقد روحي، لاسيما في ظل غياب كل هذه الأشياء. فكان للسيدة مريم العذراء القديسة كل الأسباب الوجيهة للتشكيك بالملاك جبرائيل الذي جاء إليها من عند الله، ليبشرها بأنها حبلى بيسوع المسيح قبل أن يعرفها زوجها، لكنها بدلا من ذلك آمنت:

فَقَالَتْ مَرْيَمُ: «هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ.» فَمَضَى مِنْ عِنْدِهَا الْمَلاَكُ. (لوقا 1: 38)

فقبلت كلمة الله في قلبها. نعم، من الممكن أن يكون الإيمان بهذه البساطة.

والعديد من الناس لديهم بالتأكيد إيمان إلى حد ما؛ فهم يعرفون شيئا عن السيد المسيح، ويقول قلبهم لهم: ها هو ذا من أقدر أن أثق فيه. لكن مع ذلك، لدى كل منا مشاعر الخوف والقلق، وغالبا ما تؤدي هذه الأشياء إلى ارتياب وتحفظات. فهناك شيء في داخلنا يبحث عن المسيح، وفي الوقت نفسه، هناك شيء في داخلنا يمسكنا ويمنعنا ويجعلنا غير راغبين في الانفتاح عليه كليّا. لكن الانفتاح بالذات هو ما يجب علينا القيام به. فالانفتاح هو الخطوة الأولى نحو الإيمان.

أن محبة الله موجودة دائما حوالينا، سواء قبلناها أو لم نقبلها. كما كتب المفكر الفرنسي باسكال Pascal في كتابه «بنسي Pensées» الذي يعني «أفكار» فقال: «أنت تبحث عن يسوع لأنه هو الذي وجدك أولا.» فينبغي أن تساعدنا هذه الكلمات على أن ندرك بتواضع أن يسوع المسيح يحبنا قبل أن نحبه. وربما يكون قد بدأ سلفا بالعمل في قلوبنا حتى لو لم نكن على علم بذلك.

والإيمان بطبيعة الحال لا يبدلنا ويغيّر حياتنا بطريقة سحرية: فالعدو مترصد لنا دائما، وسوف يحاول دائما التفتيش عن نقاط الضعف عند الشخص بغية إسقاطه أو إسقاطها. ثم أنه لا يكفي أن نقدم إلى السيد المسيح سوى ما هو حسن فينا، ولا يكفي أن نقدم له سوى خطايانا وأعبائنا. فهو يريد كل شيء فينا. فلو لم نأتمنه كليّا على نفوسنا، فلن نحصل أبدا على التحرّر والسلام الروحي الذي يعدنا به.

والبركة التي تحلّ علينا بالإيمان بالمسيح تطلب منا حتى أكثر من هذا. إنها تطلب الطاعة:

> مَنْ يُؤْمِنْ بِالاِبْنِ، فَلَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ. وَمَنْ يَرْفُضْ أَنْ يُؤْمِنَ بِالاِبْنِ، فَلَنْ يَرَى الْحَيَاةَ. بَلْ يَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ غَضَبُ اللهِ. (يوحنا 3: 36)

غالبا ما نقوم بصنع إيحاء تعجيزي في عقلنا الباطني بسبب مخاوفنا وهذا الإيحاء مفاده أننا عاجزون عن إيجاد أية مساعدة وعن الحصول على أية معونة. ولما قال يسوع المسيح:

> الحقَّ الحقَّ أقولُ لكُم: إنْ كُنتُم لا تأكُلونَ جسَدَ اَبنِ الإنسانِ ولا تَشرَبونَ دَمَهُ، فلَن تكونَ فيكُمُ الحياةُ. (يوحنا 6: 53)

فقد رأى الناس – حتى أقرب أتباعه – أن هذا الكلام صعب القبول، فتركه كثيرون. لكن لما سأل يسوع تلاميذه الاثني عشر:

> وأنتُم، أما تُريدونَ أنْ تَترُكوني مِثْلَهُم؟ (يوحنا 6: 67)

فأجابه بطرس:

> يا ربّ، إلى مَن نَذهَب وكَلامُ الحَياةِ الأَبَدِيَّةِ عِندَك؟ ونَحنُ آمَنَّا وعَرَفنا أَنَّكَ قُدُّوسُ الله. (يوحنا 6: 68–69)

فما دام لدينا إيمان كهذا، فسوف نرى أن الرب يسوع

قادر بل سوف يفعل كل شيء لنا أيضا.

وفي هذا الصدد فقد كنت أحس دائما بأن رمز دم المسيح في غاية الأهمية. لأن تنقية نفوسنا من الخطايا الذي يقدمه لنا المسيح مجانا ليس تعليما جديدا أو عقيدة جديدة، بل إمكانية جديدة لإقامة علاقة شخصية معه. إنها حياة:

أنا هوَ خُبزُ الحياةِ. مَنْ جاءَ إِليَّ لا يَجوعُ، ومَنْ آمنَ بي لا يعطَشُ أبدًا. (يوحنا 6: 35)

وقال يسوع المسيح أيضا:

الحقَّ الحقَّ أقولُ لكُم: مَنْ آمن بي، فلَهُ الحياةُ الأبديَّةُ. (يوحنا 6: 47)

وأكثر شيء مؤثر هو ما وصفه القديس يوحنا الرسول عن الوعد الرائع الذي يقدمه يسوع المسيح لكل منا خلال جميع الأزمنة والأوقات، مهما اكتأب وضع الظروف أو صعُب الطريق:

ووقَفَ يَسوعُ في آخرِ يومٍ مِنَ العيدِ وهوَ أعظَمُ أيّامِهِ، فقالَ بأعلى صوتِهِ: «إنْ عَطِشَ أحَدٌ مِنْكُمْ،

فَلْيَـأْتِ إِلَيَّ وَيَـشْرَبْ. وَمَـنْ آمَـنَ بِي، سَـتَفِيْضُ مِـنْ أعماقِـهِ أنْهـارُ ماءٍ حَيٍّ، كَما يَقُـولُ الكِتابُ.» (يوحنا 7: 37–38)

فبدون يسـوع المسـيح لا نحصل على أي سـلام. وهو يبقى موجودا من أجلنا ووفيا حتى لأولئك الذين يتركونه، مثلما فعـل العديـد مـن النـاس في زمانـه عندمـا رأوا أن كلامـه يصعب قبوله، كما يبقى يسـوع المسـيح موجودا ووفيا لنا أيضـا، حتـى عند السـاعات المظلمـة العسـيرة عندما يترنح إيماننـا. ثـم أنه يحرّرنا ليس في سـبيل هذه الحياة فحسـب بـل أيضـا في سـبيل الحياة الأبديـة. لهذا السـبب نصلي من أجل أنفسـنا ومن أجل كل رجل وكل امرأة، ومن ضمنهم أولئك المؤمنين:

سـاعدنا يـا رب. فنحـن بحاجـة إليـك، وبحاجة إلى جسـدك وإلى روحـك وإلى موتـك وحياتـك – وإلى رسـالتك لجميـع الخليقة.

10

الاستسلام لله

لو آمنا بأن الإيمان نعمة إلهية، لترتب عن ذلك وجوب قبول هذه النعمة الإلهية بكامل الترحاب والفرح والحماس لكي نحصل عليها فعلا. ويجب أن نستلمها كما هي ومثلما توهب لنا دون أن نغيّرها، وذلك لكي تحصل إرادة الله في حياتنا وليس إرادتنا – فلا يجوز لنا أن نملي عليها مسار حياة معين لتأخذنا به، ولا نملي عليها طريقة معينة لتغيير حياتنا بها. وباختصار، فأن قبول الإيمان بالله معناه التخلي عن كل ما لدينا من إيمان وثقة بجهودنا البشرية لإصلاح نفسنا بنفسنا أو لصنع أي تغيير كان في أي مجال من مجالات الحياة بقدراتنا الذاتية. وقبول الإيمان بالله معناه أيضا المجيء إلى الله كأشخاص ضعفاء لا حول لهم ولا قوة إلا به، ليتمكن من العمل في نفوسنا، مثلما قال يسوع المسيح إلى الرسول بولس في الإنجيل: «في الضُّعفِ يَظهَرُ كَمالُ قُدرَتي» (2 كورنثوس 12: 9).

في الكتاب المسيحي العريق المعروف باسم «الراعي» استعان كاتبه هرماس، الذي كان من المسيحيين الأوائل، بمَثَلٍ رائعٍ يبيّن لنا أهمية تجريد نفوسنا من قوتنا البشرية. وقد شبّه ملكوت الله بهيكل عظيم من المرمر وعملية تشييده جارية دائما، وقد تتألف حجارة البِناء من أي رجل أو امرأة في هذه الدنيا. والحجارة التي تبدو صالحة للبِناء يقوم الحجّار الأستاذ بنحتها، ولو توافقت مع البِناء فسوف يستعملها الحجّار. أما الحجارة التي لا تتوافق مع البِناء فلابد أن يرذلها الحجّار. وفي نظري، فأن هذه الصورة فيها معنى بسيط لكنه عميق: فالله لا يقدر أن يستعملنا إلا عندما نرضى بأن ينحَتنا هو بيده في سبيل مقاصده – أي بمعنى، إلا عندما نستسلم له ليستعملنا في سبيل خدمة حاجاته وقضاياه هو.

ما هو الاستسلام الحقيقي؟ قد يستسلم شخص لشخص أقوى منه، أو جيش لجيش أقوى منه. وقد نستسلم نحن البشر لله لأنه قادر على كل شيء، أو لأننا نخاف عقابه. لكن كِلا السببين ليسا استسلام كامل لله. فلا يحصل الاستسلام الكامل إلا عندما نلمس طيبة الله وصلاحه – وبأنه هو وحده الصالح – ففي هذه الحالة فقط يمكننا الاستسلام لله من كل قلوبنا ومن كل نفوسنا ومن كل كياننا طوعيا ومن دون إكراه ومن دون شروط وبدافع المحبة.

وقد قال لي مرة والدي ايبرهارد آرنولد عن هذا الموضوع ما يلي:

> من الصعب أن أصف كيف يتم نزع قوتنا البشرية منا، وكيف يجب رميها عنا، وتجريدنا منها، ووضع حدّ لها، وطرحها عنا. . . . ولا تتحقق هذه العملية بسهولة ولا تحصل بفضل قرار بطولي. فيجب أن يصنعها الله فينا. فهذا هو أساس النعمة الإلهية الذي يعني: تجريدنا من قوتنا البشرية. فما لم نصل إلى درجة تجريد قوتنا البشرية، فلا يستطيع الله أن يعمل فينا من خلال روحه القدوس وزرع قضيته المقدسة فينا. . . .

بطبيعة الحال، أن الخطوة الأولى التي يجب أن نتخذها هي أن نسأل الله ليدخل قلوبنا. ولا يعني هذا أنه ليس بإمكانه أن يتحرك أو لا يرغب في ذلك من دون أن نسأله، وإنما يعني أنه ينتظرنا لنفتح حياتنا له من غير إكراه.

> هَا أَنَا وَاقِفٌ خَارِجَ الْبَابِ أَقْرَعُهُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ فَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي. (رؤيا 3: 20)

ويتساءل العديد من الناس: لماذا لا يفرض الله إرادته عليهم، ما دام له ذلك الجبروت؟ والجواب هو أن هذه هي ببساطة طبيعة الله. فهو ينتظرنا لنكون مستعدين له. وبالرغم من أنه يؤدب الذين يحبهم ويدعوهم إلى التوبة؛ لكنه لا يفرض أبدا صلاحه عليهم.

ولتوضيح هذه النقطة نضرب المثال التالي: فلو حاول أحد الآباء أن يفرض نواياه الصالحة على ابنه وذلك عن طريق الأخذ بخناق ولده والقبض على رقبته وإجباره بالإكراه على قبولها، لشعر الولد غريزيا بأن تصرفا كهذا بعيد كل البعد عن المحبة. ولهذا السبب لا يفرض الله إرادته على أيّ إنسان كان. لذلك نرى الآن أننا نتواجه تلقائيا مع سؤال هام جدا، وهو كالآتي: هل نرغب في تسليم أنفسنا لله طوعيا ومن دون إكراه – وأن نفتح أبواب قلوبنا ليدخل صلاحه ويملأ حياتنا كلها؟

وللزيادة في التأكيد، فأن الصراعات التي علّقنا أهمية عليها في هذا الكتاب تبيّن لنا أن مثل هذا الاستسلام لله ليس سهلا أبدا، لأنه يحصل في محيط مليء بقوى شريرة جبارة، حتى أن يسوع المسيح بحد ذاته جاهد جهادا شرسا لكي يسلّم إرادته إلى الآب السماوي لدرجة أن عرقه صار ينزل كقطرات دم:

وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ، وَصَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ. (لوقا 22:44)

فالشر كان قد طوّقه من كل الجهات، لكنه مع ذلك بَقِيَ وفيّا لله، وكان موقفه:

لِتَكُنْ لاَ إِرَادَتِي بَلْ إِرَادَتُكَ. (لوقا 22: 42)

ويجب أن يكون هذا موقفنا أيضا.

وغالبا ما تصادفنا في حياتنا أصعب الحالات دون أن نفهم سببها – مثل فواجع غير متوقعة أو حالة وفاة أو معاناة معينة أو فقدان مفاجئ. وهكذا الحال مع الصراع ضد الأفكار الأثيمة. ففي الوقت الذي نتأكد من الفوز في معركتنا مع عقبة روحية معينة، وفي قمة نشوة النصرة، فإذا بإبليس يداهمنا من جديد. والحلّ هنا يكمن أيضا في الاستسلام الكامل للرب يسوع المسيح.

هذا وأن المرور بأوقات عصيبة مكتوب على جميع الناس، لكن بالنسبة إلى بعض الناس، فإنهم يستصعبون قبول هذه الحقيقة والدخول في أوقات عصيبة، بل حتى أن قسما منهم لا يقبلها بالمرة، ويبدو صراعهم لقبول الشدائد وكأنه حاجز منيع لا يمكن التغلب عليه.

ولغـرض تشـجيعهم بالاستسـلام لله ولإرادتـه، ينبغي مـن ناحيـة أخرى أن لا ينـسى هؤلاء الناس – وينبغي أن لا ننـسى كلنـا – أن النـصرة الأخـيرة هـي لله مثلما يشـهد لنا بذلك الإنجيل:

ثُمَّ رأَيتُ سَـماءً جَديدةً وأرضًا جَديدةً، لأنَّ السَّـماءَ الأُولى والأرضَ الأولى زالَتـا. (رؤيا 21: 1)

11

الاعتراف بالخطايا

يقول يسوع المسيح في المقطع الإنجيلي المبين أدناه أننا ما دمنا نسعى إلى خدمة سيدين فمعنى ذلك أننا نعيش في الظلمة. لماذا؟ لأننا لو خدمنا أمورا شريرة بجانب خدمتنا لله فهذا مزيج شرير بحت، لأننا لا يمكننا خلط الظلمة مع النور، فإما أن نعيش للنور وإما للظلمة. والسبب في ذلك الخليط هو أننا ما نزال نعيش في الخطيئة والذنوب.

سِراجُ الجسدِ هوَ العَينُ. فإنْ كانَت عَينُكَ سَليمَةً، كانَ جسَدُكَ كُلُّهُ مُنيرًا. وإنْ كانَت عَينُكَ مَريضَةً، كانَ جسَدُكَ كُلُّهُ مُظلِمًا. فإذا كانَ النُّورُ الّذي فيكَ ظَلامًا، فيا لَه مِنْ ظلامٍ! لا يَقدِرُ أحَدٌ أنْ يَخدُمَ سَيِّدَينِ، لأنَّهُ إمَّا أنْ يُبغِضَ أحدَهُما ويُحبَّ الآخَرَ، وإمَّا أنْ يَتبعَ أحدَهُما ويَنبُذَ الآخَرَ. فأنتُم لا تَقدِرونَ أنْ تخدُموا اللهَ والمالَ. (متى 6: 22–24)

فكيف إذن يمكننا الحصول على قلب غير منقسم على نفسه وذي هدف واحد لكي يأخذنا إلى نور المسيح؟

وللإجابة على هذا السؤال عن كيفية رؤية نور المسيح، يجب أن نتأكد أولا من أن عيوننا الروحية طاهرة ونقية، ولم تتلطّخ بعار خطيئة غير معترف بها لحد الآن. فما دمنا نبقى محملين بذنب مختبئ في دواخلنا، فلن نحصل على تحرّر كامل ولا فرح: فسوف تبقى العين مريضة، ويبقى معها الجسد كله في الظلمة.

أن تعريف الاعتراف بالخطايا سهل للغاية – فهو عملية رفع أعباء الخطايا عن كاهلنا وذلك بمصارحة أحد الأشخاص بها بغية التحرّر من وطأتها – لكن تطبيقه ليس سهلا أبدا. كما كتب الأخصّائي في علم الاجتماع السويسري – الفرنسي تشارلز بودوان:

> عندما ندرك بأننا نحن شخصيا كنا السبب من وراء شقائنا عندما أوقعنا أنفسنا في الخزي باقترافنا للخطايا المُعيبة، فيحمل هذا الإدراك في طياته شعورا بالعار والذلّ إلى درجة كبيرة بحيث نستحي ونشعر من جرائه بالمهانة وبالتالي نمتنع عن الاعتراف بذنوبنا.

ويردف قائلا:

لكن لهذا السبب بالذات، أي عندما صنعنا شقائنا بأيدينا، فمن المهم جدا أن نكون صادقين تماما بشأن إخفاقنا لكي نحصل على الشفاء.

وعلى الرغم من وجود النصيحة الواضحة التي نراها في رسالة القديس يعقوب الرسول في الإنجيل:

لِيَعْتَرِفْ بَعضُكُم لِبَعضٍ بِخطاياهُ. (يعقوب 5: 16)

إلا أن الكثير من المسيحيين في يومنا هذا يشككون في الحاجة إلى الاعتراف بالخطايا لشخص آخر. فيصرف البعض نظره عنها باعتبارها فكرة «كاثوليكية» بحتة؛ في حين يؤكد آخرون على أهمية العلاقة الشخصية الخاصة مع الله ويجادلون بأنه يكفي أن نقدِم بخطايانا إليه. لكن الأخيرة حجة ركيكة: لأن الله يعلم سلفا بخطايانا مثلما يعلمنا الإنجيل:

وَلَيْسَ هُنَالِكَ مَخْلُوقٌ وَاحِدٌ مَحْجُوبٌ عَنْ نَظَرِ اللهِ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ عُرْيَانٌ وَمَكْشُوفٌ أَمَامَ عَيْنَيْهِ، هُوَ الَّذِي سَنُؤَدِّي لَهُ حِسَاباً. (عبرانيين 4: 13)

فما لم نخطو خطوة أكبر من مجرد إدراك خطايانا ومن ثم الاعتراف بها لشخص آخر فلن نتحرّر من وطأتها.

عندما تتضمن أعبائنا الروحية خطايا نحن على علم بها، كما هو الحال في أغلب الأحيان، فيجب الاعتراف بها اعترافا كاملا. ويؤكد هنا الأخصّائي بودوان على ضرورة «الصدق التام،» لأنه بدون الصدق التام يستحيل الحصول على ضمير طاهر حقيقي. غير أننا في بعض الحالات قد نشعر أحيانا بأننا تعرضنا لمداهمة الشرير بوجه عام. فنخشى من هذا الموضوع في تلك الحالات لأننا لا ندري بالضبط فيما إذا كنا قد استسلمنا للشرّ أو قد قصّرنا في الرد عليه أو قد تَهاوَنَّا واستَخفَفنا به. فلو دام عذاب كهذا، لوجب الاعتراف به أيضا. لكن لا يعني هذا الحفر في العقل الباطني للتنقيب عن كل ما هو صغير وتافه. فحيثما يعلِمنا الله من خلال ضميرنا بوجود معصية معينة، فينبغي عندئذ أن نعترف بها وإزالتها ليُغفَر لها. لكن ينبغي أن لا يجعلنا الاعتراف مهتمين زيادة عن اللزوم بأنفسنا وعدم الاكتراث باحتياجات الآخرين ومعاناتهم ومشاعرهم؛ لأن الغاية من الاعتراف هي دائما التحرّر، وليس ازدياد الانشغال بالذات. فما نرمي إليه هو أن نؤمن بالسيد المسيح لا بأنفسنا العاجزة. (أي بمعنى أن نعثر على يسوع المسيح الذي هو مصدر التعزية والفرح والتحرّر ومحبة الناس الآخرين وليس العثور على النفس

البشريـة العاجـزة التي هي مصدر الغـم والكآبة والتقيُّد.)

أن الإيمان والضمير الصالح متشابكان كليّا أحدهما مع الآخـر. فلو لم نسـتمع لضمائرنا، فسـوف نفقـد إيماننا. ولو فقدنـا الإيمـان، فسـوف نفقـد إمكانيـة التحـلّي بضمير حيّ وطاهر. فلذلك يقول الرسول بولس في الإنجيل بأن ضمائر أولئـك الذين لا يؤمنون نجسـة. وهـذه نتيجة حتمية، لأنه بـدون إيمـان ليس لدى الضمير ما يتمسـك به.

ولـو نظرنـا إلى أبعد من ذلك، فمـن الواضح أننا عندما نعـترف بخطيئـة معينـة لشـخص نثـق بـه ونحبه، فسـوف تتولّـد رابطـة جديدة بيننـا بفضل الاعـتراف بذنوبنا يكون أساسـها المسـيح وليسـت مجرد علاقات سـطحية أو مجرد علاقـات قرابـة بحتـة مليئـة بالمسـاومات على وصايـا الله. ويعلّق يسـوع أهمية بالغة على علاقة كهذه، كما هو مبين مـن خـلال تأكيداتـه على أهميـة العلاقـات الصادقة ضمن الجماعـة المسـيحية في الإنجيل كلـه: وفي الواقع، فهو يعدنا بأنـه سـيكون حاضرا في وسـط أي اثنـين أو ثلاثـة متّحِدين باسـمه. وفي نظـري فـإن هـذه الوحـدة هي حيـاة الشركة وحيـاة الجماعـة للكنيسـة – سـواء كانت في صيغة تقاسـم عمـل أو تقاسـم طعام أو صلاة مشـتركة أو قـراءة أو تأمل شيء مـا مـع صديق أو شريك حياة. فالشيء المهم هو القوة أو التقويـة التـي نسـتمدها مـن شركـة وعـشرة الجماعـة

المسيحية، بالإضافة إلى الوقاية من الخطيئة بفضل بركات حياة الجماعة وفوائدها الروحية. أما قلب المؤمن المنزوي لوحده والمنعزل عن الجماعة المسيحية فهو قلب يواجه خطرا محدقا عظيما.

أن الاعتراف بحد ذاته لا ينفع. إذ نرى الناس يدفعون الكثير من الأموال لكي يخبروا الأطباء النفسانيين عن معاناتهم وخطاياهم، ويقوم هؤلاء الأطباء النفسانيين بمساعدتهم على إيجاد طرق لتهدئة وإسكات ضمائرهم الهائجة. وبالتالي، فالاعتراف بدون ندامة على الخطايا التي نكشفها يبقى مجرد عملية تحميل أعبائك على شخص آخر، ولا يكون لها أي تأثير شافٍ، وبعد ذلك سوف يعاودك العبء معاودةً أكيدة.

أما الاعتراف المصحوب بالندامة فسوف يصبح مصدر فرح وسرور – أي بمعنى ذلك الاعتراف المصحوب برغبة صادقة لترك الأعمال الباطلة التي اقترفناها عن طريق نبذها كليّا إلى الأبد.

وعند إزالة الستار الذي أبقى خطايانا مختبئة، فسوف تُزَالُ بفضلها لعنة الكتمان. فقد رأيت أشخاصا تغيّروا بسرعة عجيبة وفي لمح البصر؛ فقد جاءني ناس كانوا في ضيق روحي وتكدّر نفسي كبيرين بحيث كانت خطاياهم

تشـكل أيضـا عبئا جسـديا عليهـم، لكنهـم كادوا أن يقفزوا من شـدة الفـرح بمجرد الإفصاح عـن مكنونات صدورهم.

ويصـف ديتريش بونهوفـر Dietrich Bonhoeffer [1] هـذا التحـوّل بأسـلوب رائـع ويرينـا أن الأمر هـو أكثر من مجـرد أمـر نفـسي، لكنه شيء لـه معنى أبدي:

> عندمـا نعـترف بخطايـا معينـة، سـيموت الإنسـان القديـم الذي في داخلنا ميتة موجعة ومخزية أمام أنظـار أخ مؤمـن. ولمـا كان هـذا الشـعور بالخِزي صعبـا جـدا علينـا، فترانـا دائمـا نحـاول تجنبه. غير أنـه بفضـل هذا الوجع العميق النفسي والجسـدي لشـعور الخِـزي أمـام الأخ المؤمـن، فإننـا سنشـهد صليـب يسـوع المسـيح بأنـه نجاتنـا وخلاصنـا. وسـيموت الإنسـان القديم في داخلنا، لكن الله هو الـذي قهـره. والآن نحـن شركاء في قيامـة السـيد المسـيح والحيـاة الأبدية.

(1) ديتريـش بونهوفـر Dietrich Bonhoeffer: هـو القسـيس الألمـاني المعـروف الـذي ناضـل ضد الحكم النازي وسـجنه هتلـر في الثلاثينيات من القـرن المـاضي ومن ثم تـم إعدامه.

12

الصلاة

يحفل الإنجيل ابتداء من بشارة متى ولغاية سفر الرؤيا بفقرات كثيرة عن الصلاة وعن كونها أفضل سلاح في المعارك الروحية. ونجد في رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل أفسس، في الفصل السادس فقرة تحمل أعمق المعاني من كل تلك الفقرات الأخرى، وهي كالآتي:

وخِتامًا أقولُ تَقَوَّوا في الرَّبِّ وفي قُدرتِهِ العَظيمَةِ. تَسَلَّحوا بِسلاحِ اللهِ الكامِلِ لِتَقدِروا أنْ تُقاوِموا مَكايِدَ إبليسَ. فنَحنُ لا نُحارِبُ أعداءً مِنْ لَحمٍ ودَمٍ، بَلْ أصحابَ الرِّئاسَةِ والسُّلطانِ والسِّيادَةِ على هذا العالَمِ، عالَمِ الظَّلامِ والأرواحِ الشِّرِّيرَةِ في الأجواءِ السَّماوِيَّةِ. لذلِكَ احمِلوا سِلاحَ اللهِ الكامِلَ لتَقدِروا أنْ تُقاوِموا في يومِ الشَّرِّ وأنْ تَثبُتوا بَعدَما تَمَّمتُم كُلَّ شيءٍ. فاثبُتوا إذًا مُتمنطِقينَ بالحَقِّ، لابِسينَ

دِرْعَ الاستقامَةِ، مُنتَعِلينَ بِالحماسَةِ في إعلانِ بِشارَةِ السَّلامِ. واحمِلوا الإيمانَ تُرسًا في كُلِّ وقتٍ، لأنَّ بِه تَقدِرونَ أنْ تُطفِئوا جميعَ سِهامِ الشِّرِّيرِ المُشتَعِلَةِ. والبَسوا خُوذةَ الخَلاصِ وتَقَلَّدوا سَيفَ الرُّوحِ الّذي هُوَ كلامُ اللهِ. صَلُّوا كُلَّ وَقتٍ في الرُّوحِ مُبتَهِلينَ وتَنَبَّهوا لذلِكَ وواظِبوا على الدُّعاءِ لِجَميعِ الإخوَةِ القِدِّيسينَ. (أفسس 6: 10–18)

وهناك فقرة مهمة أخرى في الإنجيل تعلمنا كيف نصلي:

وإذا صَلَّيتُمْ، فلا تكونوا مِثلَ المُرائينَ، يُحِبُّونَ الصَّلاةَ قائِمينَ في المَجامِعِ ومَفارِقِ الطُّرُقِ ليُشاهِدَهُمُ النَّاسُ. الحقَّ أقولُ لكُم: هؤُلاءِ أخذوا أجرَهُم. أمَّا أنتَ، فإذا صَلَّيتَ فادخُلْ غُرفَتَكَ وأغلِقْ بابَها وصَلِّ لأبيكَ الّذي لا تَراهُ عَينٌ، وأبوكَ الّذي يَرى في الخِفْيَةِ هوَ يُكافِئُكَ. ولا تُرَدِّدوا الكلامَ تَردادًا في صَلواتِكُم مِثْلَ الوَثنيِّينَ، يَظُنُّونَ أنَّ اللهَ يَستَجيبُ لهُم لِكَثرةِ كلامِهِم. لا تكونوا مِثلَهُم، لأنَّ اللهَ أباكُم يَعرِفُ ما تَحتاجونَ إلَيهِ قَبلَ أنْ تسألوهُ. (متى 6: 5–8)

وكنت أشعر دائما بأن اهتمام يسوع كما جاء في الفقرة أعلاه لم يكن بموضوع الخصوصية بالصلاة بقدر ما كان بموضوع التواضع: فهو يحذرنا من التباهي بتديّننا أمام

الآخريـن «مثـل الفريسـيين» ومن تـلاوة صلـوات مطوّلة.

وبالرغـم مـن كلام السـيد المسـيح هـذا الـذي يبعـث عـلى الاطمئنـان، إلا أن رفـع صلـوات شـخصية هادفـة قد يبقـى مسـألة صعبـة المنـال بالنسـبة إلى شـخص يخـوض صراعـا روحيـا عنيفـا ضـد الخطيئـة في داخلـه. لقـد كنـتُ قبـل عـدة سـنوات أقـدّم المشـورة في إحدى المـرات لرجل كان يتمنـى الارتيـاح من معركته مع خطيئـة معينة كانت قد اسـتحوذت عليه، لكنه ببسـاطة لم يتمكن من الحصول على سـلام النفس. وكان هذا الرجل يصلّي لسـاعات طوال. وعندمـا رأى أن ذلـك لم ينفعـه شـيئا، أخـذ يصـلّي للـرب يسوع ليحرّره من أي معارضة قد تكون موجودة في عقله الباطني أي في اللاوعي. وكلما زادت صلواته، زاد اضطرابه وحيرتـه، ويبـدو أن تخبطـه الروحـي سـاهم في إقناعه بأن صلواتـه لم تـرضِ الله.

فكيـف يمكن لمثل هذا الشـخص الحصول على العون؟ بطبيعـة الحال، تختلف كل حالة عن الأخرى، لكن في هذه الحالـة، عـادة ما تفيد هنا حقيقة عامـة لو أخذنا بها وهي كالآتي: فعندمـا نـرى أن صلواتنـا لا يُسـتجاب لهـا، فينبغي أن نفكـر فيما إذا كانت المشـكلة تكمـن في قلة إيماننا نحن وفي الشـك الـذي فينـا وليسـت في عـدم اسـتجابة اللـه لنا. لأنه بواسـطة الإيحاء الذاتي، يتجذّر في ذهننا شـعور الشـك

بقـدرة اللـه، وكلـما أجبرنا نفوسـنا على التفكـير أكثر وأكثر زاد شـعورنا بالعجـز. والحـلّ هنـا هو التوقـف عن التفكير والإنصـات إلى صوت الله.

فغالبـا مـا نصـلي مـن أجـل ما نشـاءه نحـن وننسى أن نسـأل اللـه مـا يريد هـو منا في تلـك اللحظة الآنيّـة. فنحن ننسى الحكمة الإلهية السـامية التي تم التعبير عنها في كلام يسوع المسـيح التالي:

طُـوبَى لِفُقـراءِ الرُّوح، فـإِنَّ لَهم مَلَكُوتَ السَّـمَوَاتِ. (متـى 5: 3)

أن الفقـر الروحـي يعنـي تفريـغ روح الإنسـان مـن كل ما هو بشري وإسـكاتها، ويعني أيضا التحلّي بالصدق والأمانة والوداعـة والتواضـع والانكسـار أمـام اللـه؛ وليـس للفقـر الروحي أية علاقة بالتوتر أو الاضطراب في نفسيّة الإنسان المصابـة بدوامـة من جراء الصراعات الروحيـة. وإنما يعني تهيئـة نفوسـنا لله كما نحن عليه وعـلى حقيقتنا – كخطأة مسـاكين بائسـين – بـدلا مـن «هندمـة نفوسـنا وتلميعها» أمام الله.

فاللـه يعلـم بحقيقـة حالتنـا الروحيـة، ولا فائـدة من محاولة تحسـين مظهرها. فمن الواضح، أن هندمة نفوسنا

ما هي سوى حماقة، حتى أن هذا يشمل أيضا محاولاتنا لتقمُّص الكيفية التي يريدنا الله بها، معتقدين أنه على الأرجح سوف يسمعنا ويستجيب لنا لو تحلّينا بإطار ذهني مشابه للفكر الإلهي الذي لا ينطبق مع حقيقة فكرنا. فيقول الإنجيل:

> لا تَقلَقوا أبدًا، بَلِ اطلُبوا حاجَتكُم مِنَ اللهِ بالصَّلاةِ والابتِهالِ والحَمدِ، وسَلامُ اللهِ الّذي يَفوقُ كُلَّ إدراكٍ يَحفَظُ قُلوبَكُم وعُقولَكُم في المَسيحِ يَسوعَ. (فيليبي 4: 6-7)

ثم أن الله يستجيب دائما لكل صلاة صادقة، رغم أنه ربما لا يستجيب على الفور. فقد صلى النبي دانيال بكل أمانة وإخلاص من أجل مغفرة خطايا شعب إسرائيل، لكنه لم يحصل على أي جواب من الله لمدة ثلاثة أسابيع. بعدئذ ظهر له ملاك في رؤية وقال له:

> فقالَ لي: لا تَخفْ يا دانيالُ، فَمِنْ أوَّلِ يومٍ وجهْتَ فيهِ قلبَكَ للفَهْمِ ولإذلالِ نفْسِكَ أمامَ إلهِكَ، سَمِعَ اللهُ كلامَكَ وجئْتُ أنا لأجلِ ذلِكَ. ووقَفَ في وجهي رئيسُ مَملَكةِ فارِسَ واحدًا وعِشرينَ يومًا، فجاءَ لِنصْرَتي ميخائيلُ، رئيسُ رُؤساءِ الملائِكةِ، فلم أُبطِئْ هُناكَ في مَملكَةِ فارِسَ، وإنَّما جئتُ لأُبَيِّنَ لكَ ما

يَحدُثُ لِشعبِكَ في الأيّامِ الآتيَةِ، لأِنَّ الرُّؤيا هيَ لِتِلكَ الأيّـامِ. (دانيال 10: 12–14)

فنرى أن الله قد سمع فعلا صلاة دانيال منذ البداية، إلا أن قـوى الظلمـة (المتمثلـة برئيس مملكة فـارس) جعلت من الأمـر صعبا عـلى الملاك الذي جاء ليتدخـل ويقدم المعونة. وفي يومنـا المعـاصر، وبالرغـم مـن نـصرة الصليـب، إلا أن قـوى الظلمـة مـا تـزال موجودة ومـا تزال تعمـل. وربما لا يُسـتجاب لصلواتنا على الفور مثلما حصل مع دانيال، لكن يسـمعها الله. فلنؤمن بهذا إيمانا راسـخا.

13

الانفصال وتصفية الذهن

لو كنا نخوض صراعا روحيا ضاريا وأحسسنا في وسط تلك المعركة الروحية باشتياق كبير إلى الله في أعماق قلوبنا فهذا دليل على أن الله ما يزال موجودا هناك، (وبمجرد أننا نصارع فهذا بحد ذاته علامة على حضوره أيضا.) وربما لا يكون لدينا القوة آنذاك لنتبعه، لكن ما دمنا أننا نسمعه من خلال صوت ضميرنا، فيمكننا التوكُّل عليه واثقين بأنه سوف ينتشلنا من صراعنا الروحي ويمنحنا النصرة.

يسكن الله في أعماق قلب كل إنسان، لأن كل منا نحن البشر مخلوق «عَلَى صُورَتِهِ.» (راجع تكوين 1: 27) ولو كان لدينا إيمان طفولي مطمئن بهذا لما صعب علينا الإيمان بأن صاحب الفضل الذي يخرجنا من الظلمة ويقودنا إلى التحرّر والنور هو الله الذي يرشدنا بصوته. لكن كيف سيتسنى لنا الحصول على الهدوء الروحي اللازم لسماع

كلام الله في وسط ضجيج أصوات أخرى تتسابق من أجل الفوز بانتباهنا؟

وجوابا على هذا السؤال، فقد تطرّق والدي ايبرهارد آرنولد في إحدى قصائده إلى هذا الموضوع وحدّثنا عن شوقه ليكون ذاته «مُفرَّغاً» لله لكي يعد نفسه لجلالته «في هدوء وسكينة.» وهذا الهدوء الذي سماه ايكهارت «الانفصال» هو ضرورة يومية لكل مسيحي. ويعني الانفصال هنا فصل نفوسنا عن جميع التوترات التي تصيبنا في كل يوم – مثل الهموم بشأن العمل وبشأن كيفية قضاء أوقات الفراغ وبشأن حياتنا الشخصية؛ وفصل نفوسنا عن نشرة الأخبار وعن الرياضة وعن مشاريع اليوم التالي المشتّتة للفكر. ويعني الانفصال أو صفاء الذهن المثول أمام الله بهدوء وصمت وتفريغ ذواتنا له لكي يتسنى لنا إدراك عمله الجاري في قلوبنا.

أما «الإرادة المشلولة» التي كَتبتُ عنها سابقا (في إشارة إلى الإرادة البشرية التي لا تجدي نفعا في الصراعات الروحية) فهي الأخرى يجب إبعادها عن مكانها وإزالتها عن الطريق لكي يتسنى للصوت العميق للقلب أن يتكلم دون أن ينافسه أي شيء آخر مختبئ في دواخلنا. وتعني هذه العملية الانفصال عن سطوة حب المال، وعن الأمور الجنسية غير الشريفة، وعن العداوة؛ وعن الغش

والخـداع، وعن عدم الثقة بالآخرين، وعن الكراهية؛ وعن جميـع الأرواح الغريبـة عـن اللـه ونبذهـا كليّـا. وأود هنـا التأكيـد مـرة أخرى عـلى الدور الكبير الـذي يلعبه اللاوعي في هـذا الموضـوع، وأيضا تذكير القـارئ بأنه عندما تهاجمنا روح شريرة فغالبا ما يكون سبب ذلك وجود أفكار شريرة قابعـة في عقلنـا الباطني التي تعمل كنواة تسـتخدمها تلك الأرواح الشريـرة لتتبلور وتسـتفحل. فلـو أخذنا هذا بنظر الاعتبـار لتجلّـت لنـا أهميـة القيـام بعملية الانفصـال هذا أو تصفيـة الذهـن في كل مسـاء قبـل النـوم وتفريـغ ذواتنا للـه. لأن مـا نفسـح له المجال في قلوبنا قـد يداوم في العمل بدواخلنا طـوال الليل.

ونحـن نعلـم بأننا لا نقدر على تحقيق انفصال حقيقي بقوانـا البشريـة، وبالرغم من ذلك فلا داعـي هنا للقلق أو الشـك بالـذات من جـراء ضعفنا هذا. لأن إمعـان النظر في ضعفنا أسوأ عمل نقوم به لأنه يؤدي إلى أن يبقى الإنسان غـارزا في أوحـال الصراع الروحي ولا يرى أي تحسّـن جيد. وأنـا شـخصيا قد قدمتُ المشـورة لناس كانـوا يفعلون هذا الـشيء – فقـد كانـوا منكبّـين عـلى مراقبة أنفسـهم ونقاط ضعفهـم بحيـث كانـوا دائمـا متوتريـن نفسـيا، ولم يكـن بوسـعهم الاسـتماع لله مطلقا.

أمـا لـو كنا نتمنى حقا الحصول عـلى معونة الله وعلى

مساعدته، لوجب علينا أن لا ننظر إلى أنفسنا، بل إلى الله. وكتب ايكهارت يقول:

لا شيء يصنع من الإنسان إنسانا حقيقيا سوى فضيلة التخلي عن إرادته البشرية. فهذه هي الإرادة الكاملة والحقيقية للإنسان وليس سواها، التي تمكنه من الدخول إلى إرادة الله بدون إرادته الذاتية. لأن كمال إرادة الإنسان تعني أن يكون الإنسان في انسجام مع الإرادة الإلهية، وذلك عن طريق أن يشاء الإنسان ما يشاء الله.

وعندما ظهر الملاك جبرائيل لمريم العذراء ليبشرها، لم تكن هي قد فعلت أي شيء يجعلها أن تكون أمًّا ليسوع المسيح؛ لكن بمجرد تخليها عن إرادتها البشرية عندما قالت: «هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ،» صارت حقا في تلك الساعة أمّ الكلمة الإلهية وحبلت بيسوع.[1]

ولم يحصل مطلقا في أية مرة أن أعطى الله نفسه لإنسان له إرادة مخالفة لإرادته (ولن يحصل هذا أبدا). فلا يهبنا الله ذاته بكل ما هي عليه ولا يوافينا بذاته إلا في المكان الذي يرى فيه

(1) يسوع المسيح هو الكلمة الإلهية، حيث نقرأ في الإنجيل: «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ. . . . وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدًا كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ، مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا.» (راجع يوحنا 1: 1–14)

أن إرادتـه يجـري العمـل بهـا. فهـذا هـو انفصـال روحي حقيقي وتنزُّه عن شـهوات الجسد ومفاسد الدنيـا. ففـي هـذه الحالـة، يقـف الـروح القـدس بالنيابـة عـن الإنسـان المؤمـن وقوفـا غـير متزعزع بوجه كل ما يصادف ذلك الإنسـان سـواء كان أمرا حسـنا أو سـيئا، وسـواء كان مشرِّفـا أو مخزيـا أو مفتريـا، تمامـا مثلما يقف جبل كبير وقوفا صامدا لا يتزعـزع بوجه ريـح خفيفة.

أن الإنسـان البـار يجـوع ويتعطّش كثيرا جدا لإرادة اللـه، فهـي تفرِّحه كثيرا جدا بحيث لا يتمنى أي شيء آخـر ولا يشـتهي أي شيء مغايـر لما يقضيه اللـه لـه. فلـو أفرحتـك إرادة اللـه بهـذه الطريقـة لأحسسـت وكأنـك في الفـردوس السـماوي، بغـض النظـر عـما يحـدث لـك أو لا يحدث لك. أمـا الذين يشـتهون الحصول على شيء مختلف عن إرادة الله فسوف ينالون ما يستحقون من جزاء: فتراهم دائما في تعاسـة وفي مشـاكل؛ ويواجههـم النـاس بالعنـف الشـديد والتجريـح، ويتعذبون بشـتى الطرق.

عادة ما نسـدّ نحـن البشر أذني اللـه بكلماتنا هـذه التـي نرددهـا في الصـلاة: «يـا رب، لتكـن مشـيئتك» وذلـك لأنـه عندمـا تحصـل مشـيئة الله، ترانا نغضب ولا تعجبنا مشـيئته بتاتا. ومما لا شـك فيـه أنـه عندمـا تصـير إرادتنـا مطابقـة لإرادة اللـه

فهـذا أمر حسـن؛ لكـن ما أحسـن لو صـارت إرادة اللـه هـي إرادتنا!

وكـما هـو واقـع الحـال الآن، فأنـك لـو كنتَ مريضا، لما أردتَ طبعا أن تقف ضد مشيئة الله، بل سـوف تتمنى لو كان شـفاؤك هو من مشـيئة الله. ولو سـاءت أمور الحياة معك واشـتدت لتمنيت أن تكـون انفـراج الأمـور هي من مشـيئة الله لك! غير أن الأمر يختلف عندما تصبح مشـيئة الله مشيئتك، لأنـه عندما تمرض – فسـوف يكون ذلـك بأمر الله! ولـو توفّي صديقك – فسـوف يكون ذلـك بأمر الله!

وكل مـن يوحِّد إرادتـه بفضل النعمة الإلهية مع إرادة الله توحيدا خالصا وكاملا لا يحتاج سـوى إلى أن يقـول باشـتياق غيـور: «يـا رب، أرني مـا هي إرادتـك الغاليـة عـلى قلبـي؟ وقَـوِّني للقيـام بهـا!» وسـوف يفعل الله هذا حقا مثلما هو موجود حقا، وسـوف يفيض بإنعاماته على شـخص كهذا وبكمال الأخلاق كله.

فليـس هنـاك شيء يمكـن للإنسـان تقديمـه للـه ليرضيـه أحسـن إرضاء سـوى فضيلـة الانفصال الداخـلي لتفريـغ الذات كليّـا لله. أما اللـه فلا يهتم كثـيرا بترقبنـا لعلامـات الأزمنـة وصومنـا وصلاتنـا مثلـما يهتـم بفضيلـة الانفصـال هذه.

وباختصار، إن الله لا يحتاج أكثر مما يلي:
أن نقدم له قلبا هادئا ساكتا.

وبالنسبة إلى الذين ما يزالون متخبطين بسبب تجارب إبليس الشرسة التي تمنعهم من ممارسة فضيلة الانفصال ومن تصفية أذهانهم ومن تفريغ ذواتهم لله، فقد نفيدهم بأن نذكر أن الذهن هو ليس حيِّزا أبيضا فارغا. فكل ما نمحيه من الذهن يجب أن نضع مكانه شيئا آخرا. لذلك فمن الضروري أن لا نزيل منه الأشياء التي تصرف انتباهنا عن ما هو مهم وعن السير في طريق الرب والعمل بمشيئته فحسب بل أيضا أن نُثَبِّت عيوننا الروحية ومسامعنا الروحية على يسوع وحده لكي تتبارك وتتقدّس أرواحنا وحياتنا تدريجيا. وكلما صار بمقدورنا أن ننظر إلى خارج نطاق ذواتنا وننسى نفوسنا أكثر وأكثر فسوف يتمكن الله من تحرير أذهاننا وإشفائها أكثر وأكثر. وكما ينصحنا القديس بولس الرسول في رسالته إلى أهل فيليبي في الإنجيل قائلا:

وبَعدُ، أيُّها الإخوَةُ، فاهتمّوا بِكُلِّ ما هوَ حَقٌّ وشَريفٌ وعادِلٌ وطاهِرٌ، وبِكُلِّ ما هوَ مُستَحَبٌّ وحَسَنُ السُّمعَةِ وما كانَ فَضيلَةً وأهلاً لِلمَديحِ. . . . وإلَهُ السَّلامِ يكونُ مَعكُم. (فيليبي 4: 8–9)

فعندما تحصل روح الإنسان على هذا السلام ولا تعود خاضعة لقوى الأرواح المتحاربة في داخلها؛ وعندما لا تعود خاضعـة لأيـة قوة أخـرى – ولا للضغـط الناجم عن عذاب تحرُّق المرء نفسـه إلى التحـرّر – عندئذ يتمكن صوت الله، الـذي هو الروح القدس، من التكلم إليها.

14

التوبة والولادة الثانية

لقد بحثنا في الفصول السابقة في أهمية تسليم الذات لله وفي أهمية الاعتراف بالخطايا وفي أهمية الصلاة وفي أهمية الانفصال الذهني لسماع صوت الله. لكن لو وضعنا الآن كل هذه الأمور جانبا فهناك لحد الآن سؤال مهم بل هو من أهم الأسئلة قاطبة، وهو: ماذا يجب علينا أن نفعل لنتمكن من مقاطعة الخطيئة مقاطعة كلية في قلوبنا، من أجل أن «نولد من جديد؟»

أن الجواب على هذا السؤال وفقا لما جاء في العهد الجديد من الكتاب المقدس (أي في الإنجيل) هو أنه يجب علينا أن نتوب. وهذا يعني، أننا يجب أن لا نعترف بخطايانا فحسب بل أن نُظهِر أيضا ندامة حقيقية عميقة وصادقة على ما صدر عنا من ذنوب بحيث نُنشِل نفوسنا كليّا من هيمنة الخطايا وسطوتها علينا ونقطع جميع أواصرنا معها. ولا تُعتبر التوبة فكرة مُرحَّب بها من قبل

العديـد مـن المؤمنين في يومنا هـذا؛ فالناس إجمالا يعتريهم الحرج والارتباك ويتضايقون بشدة عند مواجهتهم بها. ولا يحـب أحد أن يرى نفسـه كخاطئ؛ فمـن الألطف أن يبدو المرء كمسـيحي صالح. لكن، ألا تُبيّن لنا البشـائر الأربعة في الإنجيل بوضوح أن السيد المسيح قد جاء من أجل الخطأة – وليـس مـن أجـل القديسـين – وأن الطريـق المؤديـة إلى المسـيح هو عن طريق الانكسـار أمام الله والفقر الروحي، وليـس عن طريـق الفضيلة البشرية؟

عندما تحدث القديس بولس الرسـول عن نفسه وقال بأنـه مـن «أكبر الخطأة،» فلا يحس المرء بأن هذه الكلمات كانـت مجـرد تعابير دينيـة. إذ أنه كان يقصدهـا فعلا. لقد اضطهـد بولـس الكنيسـة قبـل اهتدائه وكان مسـؤولا عن استشـهاد العديـد مـن المؤمنـين المسـيحيين؛ فـكان يعـرف نفسه أنه كان عدو الله. وعلى المنوال نفسه، فالناس الذين اهتدوا إلى الإيمان في أورشليم يوم العنصرة (أي يوم حلول الـروح القـدس عـلى جماعـة التلاميـذ) قـد رأوا أنفسـهم كخطـأة. فلـم يـروا أنهـم كانوا على اسـتحقاق لنيـل الروح القـدس – حاشـا لهـم من ذلـك. فقـد «وَخَزَتْهُـم قُلوبُهُم،» وقالـوا عـن أنفسـهم بأنهم قتلة المسـيح. لكـن بفضل هذا الإقرار، تمكن الله من اسـتعمالهم. (راجع سـفر الأعمال في الإنجيـل 2: 1–42)

ولـو أردنـا أن يسـتعملنا اللـه، لوجب علينـا إدراك أن كل واحـد منـا خاطـئ أيضـا، حتـى أن بطـرس الـذي كان واحـدا مـن أكـثر تلاميذ المسـيح الموثوقين بهـم أدرك هذه الحقيقة، عندما تواضع ليدرك إخفاقاته: فقد خرج بطرس بعـد إنـكاره للمسـيح «وَبَكَى بُـكَاءً مُرًّا» وفقا لمـا يخبرنا به الإنجيل. وبالنسـبة إلينا أيضا، لا يوجد سـبيل آخر سوى أن نبكي عـلى خطايانا.

والتوبـة مـا هـي بالأمـر السـهل: فهـي تتطلـب صراعا روحيـا قاسـيا. لكـن حتـى لـو كنـا نمـرّ بأحلـك السـاعات وأكثرهـا عذابا من جراء تفحُّص الذات إلا إننا نجد التعزية والسـلوان الروحي عندما نرى أن يسـوع المسيح أيضا عانى مـن شـدة الأمـر قبلنا (بالرغـم من أنـه كان معصوما،) كما نقـرأ في الرسـالة إلى العبرانيـين في الإنجيـل:

> وهـوَ الّـذي في أيّـامِ حياتِـهِ البَشَرِيَّـةِ رفَـعَ الصَّلَواتِ والتَّضَرُّعـاتِ بِـصُراخٍ شَـديدٍ ودُموعٍ إلى اللـهِ القادِرِ أنْ يُخلِّصَـهُ مِنَ المَوتِ، فاسـتَجابَ لَه لِتَقواهُ. وتعَلَّمَ الطّاعَـةَ، وهـوَ الابـنُ، بِمـا عاناهُ مِـنَ الألَمِ. ولمَّـا بلَغَ الكـمالَ صـارَ مَصـدَرَ خَـلاصٍ أبَـدِيٍّ لِجَميـعِ الّذيـنَ يُطيعونَـهُ. . . . (عبرانيـين 5: 7–10)

فمن منا يتعامل مع صراعاته ضد الخطايا بهذه الجديّة بحيث نجاهد بصراخ شديد وبدموع؟ غير أن يسوع فعل ذلك. فلم يجاهد أحد مثله على الإطلاق – لا أحد سواه. فلم يستهدف إبليس الفوز بقلب أي إنسان سوى بقلب يسوع. ولما كان يسوع قد خاض جهادا أشرس من أي جهاد نخوضه نحن البشر، صار يفهم صراعاتنا الروحية. وينبغي أن نكون متأكدين من ذلك. لكن مع ذلك ينبغي أن نجاهد روحيا دائما، ولهذا السبب قال يسوع المسيح أن الذين يريدون أن يتبعوه عليهم أن يحملوا صليبهم كما هو حمل صليبه.

ولا تعني التوبة تعذيب الذات. فالتوبة قد تقلب حياتنا رأسا على عقب – بل يجب عليها أن تفعل ذلك بالحقيقة – ونشعر أحيانا كما لو كان الأساس كله قد أُزيح من تحت حياتنا، لأن التوبة عسيرة وشاقة وشديدة. لكن حتى لو كنا نمرّ بهذه الحالة فيجب أن لا نكتئب وتسود الدنيا في أعيننا أو تخور عزائمنا ونقطع الأمل عن تحقيق التوبة الكاملة. ثم أن التأديب الإلهي هو من طيبة الله، ولا يمكننا فصله عن رحمته وحنانه. ويجب أن تكون غايتنا إزالة كل ما يعارض الله من قلوبنا، لكي ينقينا الله ويهبنا حياة جديدة – أي بمعنى، لكي يملؤنا من المسيح.

أن نعمة التوبة نعمة إلهية رائعة إذا تاب الشخص توبة نصوحة. إذ يتحول قلب الحجر إلى قلب من لحم، وتتغير جميع العواطف والمشاعر والأفكار، وتتغير أيضا هيئة الإنسان برمتها، لأن الله يتقرّب من روح ذاك الإنسان. لكن وللأسف، يتحاشى العديد من المسيحيين التوبة والولادة الروحية الثانية. في حين نرى أن القسم الآخر منهم، حتى لو لم يتحاشاهما، لا يلمس أبدا بركاتهما لأنه لا يسعى إليهما. فقد يكون هؤلاء الناس على وعي بوجود الخطايا في حياتهم، وقد يحاولون بدرجة أو بأخرى أن يصارعوها سنة بعد سنة للتغلب عليها، لكن دون جدوى، حتى أنهم يشعرون في دواخلهم بأنهم محاصرون وقد غرزوا في الخطايا. إلا أنهم من ناحية أخرى يخففون الأمر عليهم ويرون خطاياهم ما هي بالحقيقة سوى «أمر طبيعي،» وهي ضعف بشري، لذلك يستعفون أنفسهم من التوبة.

فأنا من ناحية، أُشفق كثيرا على مثل هؤلاء الناس؛ لكن من ناحية أخرى، أرى أن حججهم وذرائعهم لا يمكن تبريرها مطلقا. فلو بقيتُ أصرّ على إني خاطئ كبير جدا جدا وأظن بأن خطيئتي أكبر من أن يسامحني الله عليها – بحيث أشكّ في قدرة المسيح على مساعدتي – فسوف أقف عندئذ حجر عثرة في طريق النعمة الإلهية وأمنع الروح القدس من الدخول إلى قلبي، لأني بالحقيقة أشكك

بعملي هذا في نصرة القيامة، أي في قيامة يسوع المسيح من الأموات. فيجب أن نطرح الشكّ عنا. لأن قوة السيد المسيح تكمن في ما يلي: أنه حمل خطايا العالم كله، ومع ذلك غلب الموت، كما يشهد عن ذلك الإنجيل:

فهوَ كفّارَةٌ لِخَطايانا، لا لِخَطايانا وحدَها، بَلْ لِخَطايا العالَمِ كُلِّه. (1 يوحنا 2: 2)

والمسيح موجود دائما، وكذلك الروح القدس، ولو صرخ أي إنسان لله، لسمع الله صراخه. ثم أن السيد المسيح لم يدعُ نفسه «شَفيعا لنا» من دون سبب: فلا يوجد من له رأفة ومحبة كبيرتين للخطأة مثله، فهو يعدنا:

فَكُلُّ مَنْ يَسْأَلْ، يَنَلْ. . . . وَمَنْ يَقْرَعْ، يُفْتَحْ لَهُ. (متى 7: 8)

وهذه الوعود موجودة لكل إنسان. فلا يمكننا الاختباء وراء خطايانا ونقول: «أنا إنسان ضعيف جدا،» أو نقول: «أريد أن أتغيّر، لكني لا أستطيع.» فإن هذه الأعذار بالتالي أعذار واهية لا أساس لها.

إن سرّ الولادة الثانية والحياة الجديدة هو النعمة الإلهية التي جاءتنا بالمسيح. ويبيّن الحديث الذي دار بين

الفريسي نيقوديموس – وهو أحد رؤساء اليهود – وبين يسوع أن الولادة الثانية لا يمكن تفسيرها، لكن يمكن اختبارها فقط، أي بمعنى أن يتذوّقها المؤمن شخصيا ويشهدها بنفسه ويعيشها ويحسّ بها بروحه وبقلبه وبضميره. ونحن نعلم بالتأكيد أنها تعني تحويل كامل للإنسان القديم إلى إنسان جديد. لكن لم يقدم يسوع أي أساس منطقي أو أي تفسير لها. فهو يقول ببساطة:

يَجبُ علَيكُم أنْ تُولَدوا ثانِيةً. (يوحنا 3: 7)

لذلك، فمن جانبنا نحن البشر، يجب علينا أن نؤمن ببساطة أن الله يريد أن يهبنا حياة جديدة.

بالإضافة إلى ذلك، فأن النعمة الإلهية (أي الخلاص المجاني) هي هبة عجيبة يهبها المسيح لكل واحد منا يلتجئ إليه. فهي المفتاح للولادة الثانية والسبيل لحياة جديدة تماما. وهي لا تعتمد على مؤهلات الشخص أو أعماله الصالحة، حتى أنها توافي أولئك الذين يُعتبرون في نظرنا البشري أنهم أقل الناس الذين يستحقونها. كما قال القديس بولس الرسول في الإنجيل:

لِحَمدِ نِعمَتِهِ المَجيدَةِ الّتي أنعَمَ بِها علَينا في ابنِه الحَبيبِ. فكانَ لنا فيهِ الفِداءُ بِدَمِهِ، أي غُفرانُ

الخَطايـا، عـلى مِقـدارِ غِنـى نِعمَتِـهِ. (أفسـس 1:6–7)

ويردف بولس قائلا عن فضائل النعمة:

فَلَيْـسَ عَلَيْنَـا إِذَنْ، أَيُّهَـا الإِخْـوَةُ، أَيُّ الْتِـزَامٍ نَحْـوَ الْجَسَـدِ لِنَعِيـشَ بِحَسَـبِ الْجَسَـدِ. لأَنَّـهُ إِنْ عِشْـتُمْ بِحَسَـبِ الْجَسَـدِ، فَإِنَّكُمْ سَـتَمُوتُونَ، وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُمْ بِالرُّوحِ تُمِيتُونَ أَعْمَالَ الْجَسَـدِ، فَسَتَحْيَوْنَ. (رومة 8: 12–13)

أن هـذه الشـهادة قوية جدا. فمن يسـتطيع فعلا أن يقول بـأن ليـس عليـه التـزام نحو الجسـد؟ لكـن حلّ هـذا اللغز واضح أيضا: إذ يجب أن نفتح نفوسنا لقوة الروح القدس، ونتوب، ونكرّس حياتنا للمسـيح.

فلـو كنـا على اسـتعداد ومـن كامـل كياننـا لتقديم كل شيء له – ولنقول له: «أنا آتٍ يا يسوع. أنا آتٍ، مهما كلف الأمـر» – فسـوف ينعم الله علينا بيقـين الغفران والخلاص وسـوف نتأكـد من عدم إمكانية انتصـار الخطيئة في داخلنا انتصـارا أبديـا، حتى لو كنا نصارع ضعفا معينا إلى آخر يوم مـن حياتنا. فلنسـمع إلى كلمة الله في الإنجيل:

فلا حُكْمَ بَعدَ الآنَ على الّذينَ هُمْ في المَسيحِ يَسوعَ، لأنَّ شريعةَ الرُّوحِ الّذي يَهَبُنا الحياةَ في المسيحِ يَسوعَ حَرَّرَتكَ مِنْ شريعةِ الخَطيئَةِ والموتِ. (رومة 8: 1–2)

15

الشفاء

لقد رأينا الكيفية التي غالبا ما يستعملها الشرّ لتكبيلنا في أغلب الأحيان في أثناء صراعنا ضد الخطيئة. ويؤثر الشرّ علينا حتى لو كنا نعتقد بأننا اتخذنا قرارا حازما لنقوم بعمل صالح، إذ نرى أن قوتي الإيحاء الخارجي والإيحاء الذاتي الداخلي تزيدان من تعقيد المعركة الروحية، وتدفعاننا إلى الوقوع في حيرة واضطراب، وتُضعِفان عزيمتنا، وتهيمنان علينا أحيانا وتتركاننا في مشاعر العجز التام. وتُستعمل كلمة geisteskrank باللغة الألمانية التي معناها «مريض روحيا» لوصف هذه الحالة. لذلك يغدو الإنسان مريضا روحيا ويظن أنه عاجز عن التفاني والتحرّر من قيود الأفكار الأثيمة.

والشفاء من مرض كهذا يستغرق وقتا مثلما يحتاجه الشفاء من أي مرض آخر. بالإضافة إلى أننا نحتاج إلى دواء أيضا – والدواء في هذه الحالة هو، غذاء روحي، ورعاية

روحية، وإرشـاد معزي من جانب الآخرين. غير أن الشـفاء في نهاية الأمر يتوقف على التوكُّل على يسـوع المسـيح.

عندمـا كان عمـري ثلاث عشرة سـنة أخذني أهلي مرة لزيـارة قلعـة فارتبـورغ Wartburg Castle (حيث كانت تبعـد حـوالي 50 ميلا عـن بيتنا الذي كان في وسـط ألمانيا،) وأروني أهلي المكتب الذي كان المصلح الكنسي مارتن لوثر يعمـل فيـه في ترجمة الكتاب المقـدس إلى اللغة الألمانية في القـرن الميلادي السـادس عـشر. وكانت هنـاك بقعة كبيرة من الحبر على الحائط – وقالوا لي أن الشيطان كان يحاول إغـواء مارتن لصرفه عن أداء مهمته، فألقى مارتن المحبرة عليه لتخويفه ولجعله يغرب عنه. وأعجبني هذا التصرف في ذلـك الوقـت، وتركـت تلـك الغرفـة بفكـرة طفوليـة مفادهـا أن هـذه هـي الطريقـة الحقيقيـة التي يطـرد بها الإنسـان الشيطان. أما اليوم فأنا أعلم أن محابر العالم كلها لا يمكنهـا عمـل شيء بوجه الشرّ. لأنها لو كان لها دور فهذا معنـاه أن الـصراع ضـد الخطيئة هـو مجرد مسـألة تجنيد إرادتـك البشريـة ضـد الـشر في الوقـت والمكان المناسـبين. لكـن رأينـا أن ذلك لا يجـدي نفعا أبدا.

أن القادر على أن يشفينا ويهبنا قلبا جديدا هو يسوع المسـيح وحـده. فقـد جـاء لكي يعيدنـا إلى اللـه بفضل دمه الكريـم، ولـكي يحصـل كل قلـب، مهـما كان معذّبـا، عـلى

التعزية والشـفاء فيه. وقد كتب والدي ايبرهارد آرنولد في مقالـة بعنـوان «الضمير وإعادة شـفائه» ما يلي:

إن يسـوع المسـيح هـو الطريـق إلى اللـه. ولا إله إلا ذاك الـذي هـو أب ليسـوع. وأينـما كنـا نبحث عن الله فسـوف نجده في يسـوع. وما لم يحرّرنا يسـوع من جميع أحمالنا، فسـوف نحاول عبثا التقرّب إلى اللـه الآب، الـذي هـو أب لجميـع النـاس، الـذي تمّ تقريبـه لنـا كآب سـماوي بالمسـيح. فبـدون مغفرة الخطايـا ليـس لدينـا إمكانيـة الوصـول إلى اللـه. ويقدمهـا يسـوع لنا عـن طريق التضحيـة بحياته – بجسـده وبروحـه وبدمه.

وبفضـل يسـوع يجـري إسـكات إبليـس: «الْمُشْـتَكِي الَّذِي يَتَّهِمُ إِخْوَتَنَا أَمَامَ إِلهِنَا لَيْلاً وَنَهَاراً» (رؤيا 12: 10)؛ والضمير أيضا لا يُسمح له بعد الآن أن يتّهم أحدا، حتى أن دم الأخ المقتول، هابيل، قد مُحِـي وغُفِـر لـه. لأن الـدم الأجود لابن الإنسـان – أخينـا الجديد يسـوع – صوته أعلى مـن دم هابيل. ففـي ذلـك الأخ وجدنا ممثـلا وقائدا جديـدا، الذي يُـبرئ ويحرّر.

وبالرغـم مـن أن هـذا الأخ قـد قُتِـل مثـل هابيـل، إلا أنـه يتكلـم نيابة عن قاتليـه بدلا من أن يتكلـم ضدهم، لأنه، وهو بلا ذنب، قد تنازل وصار

واحـدا منّـا. فقـد صـار لهم الشـخص الوحيـد الذي يقـف حـق الوقوف بجانبهـم. وإذا كان هو، أي ابن الإنسـان، معهم، فلا يقدر أحد أن يدينهم. ذلك أنه منـذ الآن فصاعدا ليس بمقدور أي تهمة أن تمنعهم من الوصـول إلى الله.

أن الجملة الأخيرة بشـأن «الوصول إلى الله» هي على قدر كبـير مـن الأهميـة. فهي تتحدث عـن الإجـراء الذي يجب علينـا اتخـاذه لـو أردنـا الحصـول على الشـفاء. وقـد يعني ذلـك الإجـراء في نظـر أحـد الأشـخاص البحث عن الشـفاء عن طريق صلاة صامتة مصحوبة برفع الأيادي إلى السـماء تضرعـا مـن أجل الشـفاء الروحي؛ أما في نظر شـخص آخر، فقـد يعنـي ذلـك الإجـراء الجـري نحـو اللـه أي بمعنـى أن يطلبـه ويسـتنجد بـه اسـتنجادا كبـيرا. لكـن مـن المؤكد أن ذلك لا يعني مجرد الجلوس وانتظار يسـوع ليأتي ويشـفينا بلمسـة سـحرية! وإنما ينبغي أن يكون لنا قلوب تتلهف له وتترقب تدخُّلـه في حياتنا.

أن الـروح الحيّـة التي نفخها الله في الإنسـان عند فجر الخليقـة لا تبقـى في داخـل كل منـا إلا عندمـا نجتهـد في التقرُّب إلى الله وإلى أخينا الإنسان، وإلا عندما نوفي بوصايا اللـه التـي تضفي معنى على هاتـين العلاقتين الآتيتين: أولا: «أحِـبَّ الـرَّبَّ؟ إلهَـكَ بِـكُلِّ قَلبِـكَ، وبِـكُلِّ نفسِـكَ، وبـكُلِّ

عَقلِكَ.» وثانيا: «أحِبَّ قَريبَكَ مِثلَما تُحبُّ نفسَكَ.» (متى 22: 37، 39)

أما بعد الانتهاء من خوض صراع معين فلا تزال عملية اكتمال الشفاء والتعافي غير مضمونة مئة في المئة بل متوقفة على عامل مهم يلعب دورا حيويا فيه. فهناك احتمالين: إما اكتمال الشفاء وإما معاودة الإصابة بالمرض الروحي وانحدار حالتنا النفسية بأكملها. وهذا العامل الحاسم هو نوع الموقف الذي سوف نتخذه تجاه نفوسنا وتجاه تأرجح وعدم استقرار مخيلتنا: أسيكون موقفا حازما وقويا وواثقا، أم واهيا ومترددا وضعيفا؟ فمن الواضح أن الشخص المقدام في المعارك الروحية – أي الحازم والشديد البأس في خوض كل ما يصادفه من جهاد – سوف يكون عنده يقينا أكبر بالنصرة بالمقارنة مع شخص يتملّكه الخوف أو وقاية الذات.

وحسب ما أشار إليه والدي في الفقرة الواردة أعلاه، فغالبا ما يكون الضمير هو «الْمُشْتَكِي» علينا، وهذا بالحقيقة ما يجب أن يفعله، لأن هذا هو دور الضمير: الاحتجاج والتوبيخ. لكن بمجرد تخفيف أعبائنا الروحية بالاعتراف بخطايانا وابتعادنا عن الخطيئة بالتوبة، وتحرير أذهاننا من قيود الأفكار الأثيمة ومن خنقها لفرح المحبة فينا، فلابد لصوت الضمير أن يهدأ ويرتاح ويفسح المجال

لصوت المحبة – لصوت يسوع – بأن يعمل ويبدأ بتوجيهنا إلى العطاء والتضحية والخدمة بكامل الفرح والحرية، وترجيح محبة القلب على فخاخ الذهن. وهكذا يحذرنا الروائي الروسي الشهير تولستوي Tolstoy قائلا: «لو فكرنا بالمحبة تفكيرا منطقيا فسوف ندمّر المحبة.» أي بمعنى، لو أردنا لإرادتنا أن تشفى، لوجب علينا توخي الحذر وعدم تحليل كل شعور يمرّ بأذهاننا لئلا ندمّر التحرّر الجديد الذي أخذ يستيقظ هناك.

أما القلق الزائد والمستمر (والاكتئاب أيضا) على بعض السلبيات التي عندنا مثل ضيق أفق قلوبنا أو شخصياتنا الضعيفة فلا فائدة من هذا القلق والتفكير الزائد به. ذلك أنه لا يوجد من هو طاهر وصالح مئة في المئة سوى يسوع المسيح؛ فشخصيته هي الشخصية السليمة الحقيقية والكاملة الوحيدة في هذا الكون. ودعونا لا نقع فريسة للتجارب الشيطانية، التي تدفعنا إلى طموحات الارتقاء الروحي، مثلما وقع قايين فيها عندما صار يحسد أخيه على تقرّبه من الله. وإنما دعونا نصير كالأطفال الصغار ونفرح بمجرد انتمائنا إلى يسوع. فسوف ننمو بالتأكيد في مدرسة يسوع رويدا رويدا.

وحينما يبقى لدينا شعور الشك وعدم الثقة بأنفسنا حتى لو كنا قد حققنا نصرة أولية على الخطايا في حياتنا،

فقـد يكـون هـذا علامة على أننا لا نؤمـن إيمانا عميقا كافيا لحـد الآن بالخـلاص الـذي أعـدّه اللـه لنـا نحـن البـشر ولا نحـب اللـه من كل قلوبنا. ويكتب القديس بولس الرسـول في الإنجيل ويقول أننا لو أحببنا محبة كاملة، فسوف نفهم كـما يفهمنا الله فهـما كاملا، كما يلي:

المَحبَّـةُ لا تَـزولُ أبَـدًا. أمَّا النُّبـوّاتُ فتَبطُـلُ والتَّكَلُّمُ بِلُغـاتٍ ينتَهـي. والمَعرِفَةُ أيضًـا تَبطُـلُ، لأنَّ مَعرِفَتَنا ناقِصَـةٌ ونُبوّاتِنـا ناقِصـةٌ. فمَتـى جـاءَ الكامِـلُ زالَ الناقـصُ. لمَّا كُنتُ طِفـلاً، كَطِفل كُنتُ أتكَلَّمُ وكَطِفل كُنـتُ أُدرِكُ، وكَطِفـل كُنتُ أُفَكِّرُ، ولمَّـا صِرْتُ رَجُلاً، تَرَكْـتُ مـا هـوَ لِلطِّفلِ. ومـا نَـراهُ اليومَ هـوَ صُورةٌ باهِتَـةٌ في مِـرآةٍ، وأمَّـا في ذلِـكَ اليـومِ فسَـنَرى وَجهًا لِوَجـهٍ. واليـومَ أعـرِفُ بَعـضَ المَعرِفَةِ، وأمَّـا في ذلِكَ اليـومِ فسَـتكونُ مَعرِفَتـي كامِلَـةً كمَعرِفَـةِ اللـهِ لي. والآنَ يَبقـى الإيمـانُ والرَّجاءُ والمَحبَّـةُ، وأعظَمُ هذِهِ الثَّلاثَـةِ هـيَ المَحبَّـةُ. (1 كورنثـوس 13: 8–13)

وكلمات القديس يوحنا الرسول مهمة أيضا، فتقول:

فعلَينـا أن نُحِـبَّ لأنَّ اللـهَ أحَبَّنـا أوَّلاً. (1 يوحنـا 4: 19)

فـأن مـا يسـتوجب أن يدخـل إلى قلوبنـا الصغيرة، وما يسـتوجب أن نتمسـك بـه هو هـذا: محبة القلـب العظيم الـذي يفهمنا فهـما كاملا.

ووفقـا لخـبرتي عن حـالات وتجـارب كثـيرة ومتنوعة، فإن الطريق إلى الشفاء طويل، وينبغي أن يتحمل كل واحد منـا بعـض الإخفـاق والفشـل في بعض المـرات. ويحصل في بعض الأحيان بأننا نعاود الوقوع في تلك الخطيئة التي كنا نخشـاها أكـثر من كل شيء أو التـي كنا متأكدين من تغلبنا عليهـا. لكـن وبالرغـم مـن اليـأس والاكتئاب الـذي يصيبنا نتيجـة لذلـك، فيجب علينا أن لا نفقـد الثقة بالله، لأن:

> الـذي بـدَأَ فيكُـم عمَـلاً صالِحًـا سيَسـيرُ في إتمامِهِ إلى يـومِ المَسـيحِ يَسـوعَ. (فيليبـي 1: 6)

وعندما عُلِّق يسـوع المسـيح على خشبة الصليب فلا يمكننا تصوّر آلام الصلب المبرحة التي كابدها ولا المشاعر الفظيعة التي انتابته على وجه أكيد من جراء إحساسـه بأنه متروك لوحـده – مـن قِبـل الله والأصدقـاء – فعندمـا نتأمّل هذه الآلام وهـذه المشـاعر فهي مخيفة جـدا لنتصورها؛ غير أن يسـوع مـع ذلـك وحتـى وإن كان في تلـك الظـروف صرخ لأبيه السـماوي قائلا:

يا أبي، في يَدَيكَ أستَودِعُ رُوحي. (لوقا 23: 46)

فهنا نرى قمة الإيمان. فلم يكن هناك أي شيء قادر على أن يثنيه عن إيمانه بأبيه وأبينا السماوي حتى لو كانت معاناته من أشد المعاناة وحتى لو كانت مشاعر نبذ الله له والشعور بالوحدة روحيا من أفظع المشاعر التي يراها الإنسان: فقد استودع روحه رغم ذلك في يدي الله.

لو أردنا الشفاء من الجروح التي تصنعها مكايد إبليس وسهامه، لوجب علينا التحلّي بمثل هذه الثقة المطلقة بالله أي بمعنى ثقة قوية لا تلين، بحيث حتى لو لم نشعر بأي شيء أو لم نلمس أي نتيجة لحد الآن، فسوف نسلّم رغم ذلك أنفسنا له كليّا ومن دون أي تحفظات وبكل ما نحن عليه وبكل ما عندنا. وعموما، فأن كل ما عندنا هو خطايانا. لكن لو وضعنا خطايانا أمامه بثقة كاملة مثل ثقة الأطفال المطلقة بأبيهم، فسوف ينعم الله علينا عندئذ بالمغفرة والتطهير وسلام القلب؛ وسوف تخلق هذه النعم فينا محبة لا يمكن وصفها.

16

التنقية الروحية

حالما نتوب بصدق ونولد ثانية من الروح القدس، نحصل على ضمائر صافية وقلوب نقيّة ونعيش واقعا حيّا جديدا، وقد تحملنا الفرحة والقناعة اللتان توافينا بهما حياتنا الجديدة لأيام عديدة. وبالنسبة إلى أغلب الناس، فإن الصراعات الروحية سرعان ما تعاود بالرجوع وتبدأ من جديد، غير أنها حتى لو كانت جديدة، أو أخف وطأة – وحتى لو لم نرجع إلى العادات الأثيمة السابقة – إلا أنها تؤثر علينا ولو بدرجة قليلة، فترانا لا نجرؤ من بعد ذلك الحين على التحدث عن نقاوتنا والعلاقات الشريفة بكامل القناعة مثلما كنا نتحدث عنها بقوة في السابق عند أول توبتنا. وعندما يصادف المسيحيون هذه الحقيقة، فلا عجب في أن الكثير منهم يستسلمون ويتخلون عن فكرة إمكانية الحصول على شفاء حقيقي وقلب طاهر شريف.

هـل النقـاوة هـدف عملي يمكن تحقيقـه فعلا، أو هي مجـرد مثـال رائـع مـن المثاليـات؟ لقـد صارعتُ لسـنوات عديـدة لمحاولـة الإجابـة عـلى هـذا السـؤال المهـم، فكنت أعـود دائمـا إلى ذاك الـذي دعانـا أصـلا إلى أن نحصـل عـلى قلب نقي. فلو كان يسوع المسيح – الإنسان الوحيد الخالي مـن الخطيئـة من بين جميع الذين مشـوا على هذه الأرض – يصـارع التجـارب وإغواء إبليس، فهو بالتأكيد لديه تفهّم كبـير لزلاتنا وفشـلنا! لكنه مع ذلـك يطالبنا: «فَكُونُـوا أَنْتُمْ كَامِلِـينَ» (متـى 5: 48) ويخبرنـا أيضـا بـأن أنقيـاء القلـوب وحدهم سـوف «يُشـاهِدونَ اللـهَ» (متى 5: 8).

تخبرنـا الكاتبـة الروائيـة السـويدية سـلمى لاغرلـوف Selma Lagerlöf (الحائـزة عـلى جائـزة نوبـل في الأدب) عـن قصـة فارس محارب أوقد شـمعته عند قبر المسـيح في القـدس أثناء إحدى الحملات الصليبية، وعاهد نفسـه على أن يوصل لهب الشـمعة غير منطفئ إلى مدينته في إيطاليا. وعـلى الرغـم من تعرضه للسـلب من قبـل قطاعي الطرق ولشتى أنواع المصائب والمخاطر التي صادفته أثناء رحلته، إلا أنـه كان مصمـما عـلى شيء واحـد فقـط هـو: حراسـة وحمايـة لهبـه الصغـير. وفي نهايـة القصـة نـرى كيـف قـام التفاني القلبي الكامل بتغيير هذا الفارس تغييرا كاملا: فقد غـادر بيتـه في البدايـة كمحـارب وحشي لا يرحم ومسـتعد لاقـتراف أفظع الأعمال، لكنه عاد إلى البيت إنسـانا جديدا.

فلو وجّهنا قلوبنا مثل هذا الفارس إلى شيء واحد فقط لا غيره، فسوف يغيّرنا الرب كليا نحن أيضا، كما يشهد لنا الإنجيل:

> نَحنُ نَعرِفُ أنَّ المَسيحَ متى ظهَرَ نكونُ مِثلَهُ لأنَّنا سنَراهُ كما هوَ. ومَنْ كانَ لَه هذا الرَّجاءُ في المَسيحِ طهَّرَ نَفسَهُ كما أنَّ المَسيحَ طاهِرٌ. (1 يوحنا 3: 2–3)

أما لو بقينا منقسمين في نفوسنا ومشتّتي الذهن والانتباه، فسنبقى أيضا (كما قال والدي ايبرهارد آرنولد في كتابه الأرض الروحية Inner land): «ضعفاء، وواهنين، ومتراخين؛ وغير قادرين على قبول مشيئة الله، ولا على اتخاذ قرارات مهمة، ولا على اتخاذ موقف قوي. . . . فنقاوة القلب ما هي سوى نزاهة مطلقة نحن في أمس الحاجة إليها للتغلب على الشهوات التي تنهكنا.»

لكن قبل أن نستبعد عنّا هذه «النزاهة المطلقة» المذكورة أعلاه على اعتبارها من المثاليات المستحيلة دعونا نلقي نظرة على ما قاله القديس بولس الرسول عن التنقية الروحية. فهو يسلم تسليما بديهيا بأننا نحن البشر سوف نحصل دائما في أذهاننا على نزاعات وعراقيل في طريق العمل بوصايا الله، وأننا سوف نكون دائما معرضين للتجارب وإغواء إبليس. لكنه مع ذلك يردف واصفا

معركتنا مع الشرّ بأنها معركة نصرة بحيث «نَأْسِرُ كُلَّ فِكرٍ ونُخضِعُه لِطاعَةِ المَسيحِ.» (2 كورنثوس 10: 5). وهنا نقول مرة أخرى بأن النصرة ربما لا تكون سهلة المنال. فيستوجب علينا أن نتواجه مع الحقيقة وهي أن الصراع الروحي حرب واسعة النطاق دارت رحاها منذ سقوط الإنسان، ولم تهدأ بل اشتدت شراستها منذ قيامة يسوع المسيح من الأموات وحلول الروح القدس على الكنيسة الأولى في يوم الخمسين وانبثاقها. وما هو رائع في كلام القديس بولس الرسول هو يقينه بأنه من الممكن جدا أن نأسر أفكارنا وإخضاعها لطاعة المسيح.

أما اللاهوتي والفيلسوف الألماني ايكهارت فيخبرنا في كتابه «عن الانفصال الروحي On Inner Detachment» عن الكيفية التي يمكن بها أن يصبح قلب كل واحد منا طاهرا فعلا، فيقول:

> يجب على طبيعتك البشرية (أي المخلوق غير الإنساني الذي في داخلك) أن تغادرك لكي يصبح في مقدور الله الدخول إليك. لأن الله لا يبدأ إلا عندما تزول تلك الطبيعة.
>
> وما دمتَ أنك تحمل أعباء طبيعتك البشرية فلا يريد الله منك أكثر من أن تغادر نفسك، لتجعل الله إلاها في داخلك. أما لو أبقيت ولو أصغر صورة

لـك عـن المخلوق الـذي يُمثّلك، فسـوف تصبح هذه الصـورة البشريـة كبـيرة بكـبر الله: فسـوف تبعدك عـن إلهـك بأكملـه. فكلـما دخلتـك صـورة كهـذه، فينبغـي أن يغـادرك اللـه، وكلـما غادرتـك هـذه الصـورة، دخلك الله.

أن محبـة الـذات أسـاس جميـع الـشرور وسـببها؛ فهـي تسـلب كل مـا هـو خـيّر وكل ما هو كامل. لذلك ولأجل أن يصبح بمقدور روح الإنسـان أن تعرف الله، يجب عليها أن تنسى نفسها وتخسر نفسـها. لأنها مادامت ترى نفسـها شـيئا معتبرا، لن تـرى الله ولـن تعرفه. لكنها عندما تفقد نفسـها في سـبيل الله وتترك كل شيء، عندئذ تجد نفسها ثانية في اللـه لأن اللـه يطـلّ بفجـره عليهـا – وعنـد هذه الحالـة فقط يتسـنى للروح معرفة نفسـها ومعرفة كل شيء في اللـه. . . .

فكل من يتخلى عن الأشياء بطبيعتها المبتذلة والتافهة سـوف يمتلكها بطبيعتها الطاهرة والأبدية. وكل من يتخلى عن الأشـياء بطبيعتها الدنيئة، التي تكون فيها فانية، سـوف يحصـل عليها ثانية في الله، التـي تكون فيه بكيانها الحقيقي الصالح. . . .

عندمـا يـترك الإنسـان طوعـا الأمـور الزائلـة ويلتفـت إلى الخير الأسـمى، أي الله، فهذه علامة لا تقبل الشـك وهي أن الإنسـان يعيش في نور النعمة

الإلهية. فمثل هذا الإنسان لا تبحث روحه عن الله خارج نطاقها، وإنما تبحث عنه في مدرسة القلب، لأنها تعرف بأن الروح القدس يُعلِّمها هناك على الأشياء التي تؤدي إلى بركاتها. . . .

وتحاول روح الإنسان أن تقوم بكل أفعالها على أكمل وجه ممكن لتتماشى مع مشيئة الله. . . . وتبذل دائما قصارى جهدها لكي يكون لها ضميرا صافيا عن طريق التنزّه عن الأفعال الدنيوية ومحبة طريق الآلام، لكي تزداد النعمة فيها وتقلّ شهوات الجسد الشريرة.

عندما يسمع الناس كلمة «جسد» فعادة ما يتبادر إلى ذهنهم ممارساتهم الجنسية، أو ربما الشراهة في الأكل والشرب. لكن ليس هذا المعنى الوحيد لهذه الكلمة. فلا أنكر أن الاِبتذال الجنسي والشراهة هما «من صنيع الجسد،» لكن هذا هو الحال أيضا مع البِرّ الذاتي (أي الاعتقاد باجتهاد الإنسان الذاتي وفضائله البشرية وبِرّه الذاتي البشري،) وهذا هو الحال مع الرياء أيضا، ومع كل شيء أناني فينا – وكل شيء لا ينتمي إلى المسيح. وتعني التنقية الروحية أن نسأل الله باستمرار لكي يعيننا في التغلب على الجسد – لاسيما على انتفاخنا الروحي. فالانتفاخ هو أبشع ما يمثله الجسد، لأنه لا يترك مجالا لله في قلب الإنسان.

ولـو ألقينـا نظـرة صادقة على أنفسـنا، لاعترفنا بحاجة كل منـا إلى غفـران الله يوميـا. لكن لا يُعتبر ضعفنا البشري عائقـا في طريقنـا إلى ملكـوت اللـه، مـا دمنـا لا نسـتعمله كذريعـة لتبرير خطايانـا. ويذهب القديس بولس الرسـول إلى أبعـد مـن ذلـك ليقـول أن الـرب سيكشـف عن نفسـه بأبهـى طريقة من خلال ضعفنـا، في هذه الآيات الإنجيلية:

> ولِئَـلاَّ أنتَفِـخَ بالكِبريـاءِ مِـنْ عَظَمَـةِ مـا انكَشَـفَ لي، أُصِبْـتُ بِشَـوكَةٍ في جَسَـدي وهِـيَ كَرَسـولٍ مِـنَ الشَّـيطانِ يَضرِبُني لِئَلاَّ أتكَبَّرَ. وصَلَّيتُ إلى اللهِ ثلاثَ مـرّاتٍ أنْ يأخُذَهـا عَنِّي، فقـالَ لي: «تكفيكَ نِعمَتي. في الضُّعـفِ يَظهَـرُ كَـمالُ قُـدرَتي.» فأنـا، إذًا، أفتَخِـرُ راضِيًـا مُبتَهِجًـا بِضُعفي حتّـى تُظَلِّلَني قُوَّةُ المَسـيحِ. (2 كورنثـوس 12: 7–9)

لذلـك تتوقـف عملية التنقيـة الروحية في نهايـة الأمر على اسـتعدادنا لتكريـس حياتنـا للـه؛ وعندما نتعثر أو نسـقط، ننهـض ونكـرّس حياتنا مـن جديد. ولن نكـون كاملين أبدا، لكـن سـوف نبقـى دائمـا مركزين عـلى الهـدف، ونقدم كل مـا لدينـا للوصول إليـه والفوز به، كما قـال القديس بولس الرسـول في الإنجيل:

ولا أدَّعـي أنِّي فُـزتُ بِذلِـكَ أو بَلَغْـتُ الكَـمالَ، بَـلْ أسـعى لعَلّي أفوزُ بِما لأجلِهِ فازَ بيَ المَسـيحُ يَسـوعُ. . . . وهـوَ أنْ أنـسى مـا ورائي وأُجاهِـد إلى الأمـامِ، فأَجـري إلى الهَـدَفِ، لِلفَـوزِ بالجائِـزَةِ الّتـي هِـيَ دَعـوَةُ اللـهِ السَّـماوِيَّةُ في المَسـيحِ يَسـوعَ. (فيليبـي 3: 12–14)

17

الصليب

اهتمامي الرئيسي في كل ما قلته لحد الآن بشأن الصراع الروحي للتغلب على الأفكار والمشاعر الشريرة، كان مُنصبّا على إرشاد القارئ إلى السيد المسيح وإلى الصليب. فيجب على كل واحد منا أن يكتشف الصليب. لأننا مهما نفتّش العالم كله، لا نجد مغفرة الخطايا والتحرّر من العذاب الروحي في أي مكان سوى هناك عند الصليب.

يعرف كل مؤمن مسيحي أن السيد المسيح مضى في درب الصليب في سبيلنا. لكن المعرفة وحدها لا تكفي. فما لم نرغب الموت في سبيله مثلما مات في سبيلنا فإن آلامه كلها بلا جدوى. وقد كان طريق المسيح طريقا مريرا. وانتهى بانتصار النور والحياة، لكنه بدأ في مذود، في حضيرة باردة للحيوانات، ومرّ بضيقات وشدائد كبيرة: وبآلام وعذاب، وإنكار بطرس له، وخيانة يهوذا الإسخَريوطيِّ،

وأخيرا دمار كامل وموت على صليب. فلو سمينا أنفسنا أتباعه، لوجب علينا أن نرغب في المضي في الدرب نفسه.

لقد مات المسيح على الصليب ليزيل لعنة الشرّ وينتصر عليها مرة وإلى الأبد. فلو لم نؤمن بقوة الشرّ وإمكانياته، لما تمكنّا من استيعاب عمل المسيح هذا. وما لم ندرك أن أهم سبب لمجيئه إلى الأرض هو للقيام بهذا العمل نيابة عنا – لتحريرنا من قوى الظلمة – لن نفهم أبدا اِحتياجنا إلى الصليب فهما تاما.

أن صورة العذوبة ورقّة القلب عن المخلِّص يسوع المسيح والمشابهة لفكرة إله يحب جميع الناس هي بالتأكيد صورة رائعة، لكنها بالحقيقة مجرد جزء صغير من صورته الكلية. فهذه الصورة الناقصة تعزلنا عن القوة الحقيقية للمساته الإلهية. فالسيد المسيح يعزّي ويشفي، ويخلِّص ويغفر – وهذا نعرفه؛ لكن يجب أن لا ننسى أنه يؤدِّب أيضا. فلو أحببناه حقا لأحببنا كل شيء فيه؛ لا رأفته ورحمته فحسب بل أيضا حِدّة كلامه القاطع وتوجيهه الخالي من المساومات. لأن حِدَّته هي التي تُقلِّم وتُنقّي.

أن محبة المسيح ليست كمحبة المشاعر البشرية التي تتميز بالرخاوة واللطافة التي تشوبها المساومات والخالية من الكلام الصريح، لكنها نار مشتعلة تنقّي من الشوائب

وتلفَح بحرارتها كالنار، ومحبة تؤلم، لأنها محبة حقيقية. إنها محبة تستلزم التضحية بالنفس. ويكتب والدي ايبرهارد آرنولد فيقول:

> لا يمكن التغلب على الأرض وتخليصها إلا بذبيحة. ولا يمكن أن نهزم الشيطان إلا بالحَمَل. فيسوع هو الذبيحة الطاهرة الكاملة، الذي انتصر على الشرّ. لقد تغلب يسوع على التنين ونزع سلاح الشيطان وحطم أسلحته وذلك بمحبته القربانية على الصليب. لذلك يستحيل على الشيطان أن ينتصر بأسلحة الظلمة والموت على كل من هو متّحِد بالإيمان مع المسيح المصلوب.

نرى هنا أنه يجب علينا الاتحاد مع المسيح المصلوب من أجل أن نحصل على التحرّر الذي يهبه. فصليبه هو مركز ومحور الصراع الدائر بين الله والشيطان، وعليه يجب أن يصبح مركزا لقلوبنا أيضا. فلا نصرة إلا في الصليب! ولا طهارة إلا في الصليب! فالصليب موجود في سبيل التغلب على أجناد الشرّ؛ وفي سبيل أن تتدفق محبة المسيح إلى كل إنسان تدفقا أبديا وتهبنا السلام.

وسوف تبقى هذه الحقائق عديمة الفائدة بل مجرد كلمات بلا معنى ما لم تحيا في قلوبنا – وما لم تمتلكنا

بأسلوب عميق وشخصي وما لم يتشرّب بها كياننا كله. ويعرض يسوع لنا ذاته ليهبه لكل واحد منا إلى الدرجة التي نصير فيها جسدا واحدا وروحا واحدة معه. وهذا ليس فلسفة، لكنه غذاء حقيقي؛ إنه حياة. فهو سيغيّر كل شيء لدى الإنسان الذي يختبر يسوع المسيح، ليس في تلك اللحظة فحسب بل أيضا إلى الأبد.

عندما نتعرّف على يسوع في أعماق قلوبنا، سنبدأ بإدراك – ولو قليلا – ما كابده في سبيلنا. وهذا يعني كما رأينا الاستسلام له بالصلاة والهدوء، والاعتراف بخطايانا بعضنا لبعض، ووضع خطايانا أمام الصليب بروح التوبة. عندئذ، سيقبلنا يسوع ويغفر خطايانا ويهبنا المصالحة مع الله، ويهبنا أيضا ضميرا صافيا، وقلبا نقيا طاهرا. وبفضل إنقاذنا من الموت الروحي وإهدائنا حياة جديدة، فسوف تطفح محبته علينا وتنسكب إلى داخل قلوبنا وتمنحنا حبا عظيما له.

بطبيعة الحال، لا يمكن الانتهاء عند هذه المرحلة، فبالرغم من أن ما يعيشه الإنسان من تنقية روحية ومغفرة لخطاياه بفضل الصليب يُعتبر أمر أساسي على الصعيد الشخصي، إلا أن التركيز المستمر على هذا وحده سيكون بلا فائدة. فمحبة الله عظيمة جدا، ولابد لها أن ترتقي بأذهاننا لكي تفكر في ما هو خارج نطاق صراعاتنا

الروحيـة الصغـيرة – وخـارج نطـاق أي انشـغال بخلاصنـا الشـخصي – ليتسـنى لنـا رؤية معانـاة الآخريـن، ورؤية ما هـو أبعد من ذلك ألا وهـو عظمة الله وخلائقه. فالصليب أكـبر بكثـير مـما هو شـخصي؛ فله أهميـة كونيـة، لأن قوته تحتضـن الأرض كلهـا ومـا هـو أكبر من هـذه الأرض!

هنـاك أسرار لا يعلـم بهـا إلا الله، وربما صَلْب المسـيح أعظـم هـذه الأسرار. وتحـدّث القديـس بولـس الرسـول في رسـالته الإنجيليـة إلى أهـالي كولـوسي عـن سرّ الصليـب العجيـب وقـال بـأن الصليـب وحده هو مـا اِبتهج بـه الله ليدع طبيعته الكاملة تسـكن في يسـوع المسيح وليصالح به كل مـا في الأرض والسـماوات، «بِدَمِ يَسُـوعَ المَسْـفوكِ عَلَى صَلِيبِـهِ.» فلنقـرأ شـهادة الإنجيل:

> فَقَـدْ سُرَّ اللـهُ أنْ يَحِلَّ بِكُلِّ مِلئِهِ فِي المَسِـيحِ. وَاختارَ أنْ يُصالِحَ كُلَّ الأشـياءِ ثانِيَةً لِنَفسِـهِ بِالمَسِـيحِ، سَـواءٌ عَـلَى الأرْضِ أمْ فِي السَّـماءِ. صَنَـعَ اللـهُ الصُّلـحَ بِـدَمِ يَسُـوعَ المَسْـفوكِ عَـلَى صَلِيبِهِ. (كولـوسي 1: 19–20)

لذلك، لن تتصالح الأرض مع الله عند الصليب فحسـب بل تتصالح عنده أيضا السماوات وجميع القوى والسلاطين في عـالم الملائكـة. ومـن المؤكد أننـا نحن البشر، وربمـا الملائكة أيضـا، لـن نفهـم هذا فهـما كاملا أبـدا. لكننـا متأكدون من

شيء واحد وهو أن المسيح غلب الموت، ذلك العدو الأخير، وبفضل هذا الانتصار استجدَّ أمر ما بحيث ما يزال لديه سلطان على ما هو أكبر من نطاق حدود كوكبنا.

18

تكريس الحياة لملكوت الله

في النهاية، لا يمكننا القيام بأي عمل صالح بدون يسوع المسيح، حتى لو كانت لدينا أقوى إرادة وأطيب نوايا وأشد اجتهاد في الصراعات الروحية. فمثلما لا يؤتي الغصن بثمر إلا عندما يكون متصلا مع جذع أو ساق شجرة حيّة، فهكذا الحال معنا، فلا يمكن أن يكون لنا حياة مثمرة إلا عندما يكون لدينا اتصال مع الكرمة، التي هي يسوع المسيح. لكن لا يرضى يسوع المسيح بمجرد تعلقنا به.

صحيح أننا رأينا أنه ليس من الممكن استيعاب المغزى الكوني لعمل الفداء الذي قام به السيد المسيح – أي أهمية الصليب على صعيد الكون – من دون أن نختبر يسوع المسيح أولا ونتعرّف عليه شخصيا في قلوبنا، لكن لو اكتفينا بهذه العلاقة الشخصية مع يسوع، ولم نتحسّس بالصورة الأعظم لخطته لنا نحن البشر الذين نُعتبر جزءا

صغيرا بالنسبة إلى الكون الذي لا نهاية له، فسوف نجعل مسيحنا مسيحا صغيرا جدا.

فلا تكفي، في اعتقادي، مجرد محبة يسوع والاعتراف به كصديق لقلوبنا، وكمخلِّص يهبنا علاقة أبدية مع الله. فهو بالتأكيد يريدنا أن نمتلئ بأكثر من ذلك: برؤية الملكوت العظيم لأبيه السماوي. فلا يجوز أن أكتفي بالتغلب على خطيئة معينة تضايقني ومن ثم أرتاح بلا اكتراث، قائلا: لقد فزتُ بمعركتي الصغيرة وانتهت مهمتي. وقد أكون من أكثر الناس الصالحين في العالم، من وجهة نظر الأخلاق، لكني لو افتقرت إلى محبة الآخرين ولم يهمني أمرهم، لما كان قلبي نقيّا لحد الآن. ولو تركتُ أخي الإنسان يستمر في جوعه وأنا شبعان، لما كنتُ قد تغلبتُ على الخطيئة في حياتي تماما. ويريدنا يسوع أن نقاسي معه بسبب الظلم والمعاناة في العالم؛ وأن نجوع ونتعطش إلى انتشار البِرّ والإحسان بين جميع الناس؛ ويريدنا أن نشهد لطريقه، طريق المحبة والعدل والسلام – وأن نجاهد معه في سبيل بناء مدينة على جبل، التي أشار إليها في الإنجيل:

أنتُم نورُ العالَمِ. لا تَخفَى مدينةٌ على جبَلٍ، ولا يُوقَدُ سِراجٌ ويوضَعُ تَحتَ المِكيالِ، ولكِنْ على مكانٍ مُرتَفِعٍ حتّى يُضيءَ لِجميعِ الّذينَ هُمْ في البَيتِ. فلْيُضِىءْ نورُكُم هكذا قُدَّامَ النَّاسِ ليُشاهِدوا أعمالَكُمُ

الصّالِحـةَ ويُمَجِّـدوا أباكُمُ الّذي في السَّـماواتِ. (متى 5: 14–16)

ونقـول هنـا مرة أخـرى، أنه ليـس باسـتطاعتنا تحقيق أي مـن هـذه الأمـور أعـلاه بـدون أن نختبر شـخصيا ونتذوق الـولادة الروحيـة الثانيـة. ونحـن لا ننكر وليـس لدينا أدنى شـك في أن قوة الخطيئة والظلمة تندحر في كل مرة يجري الفوز بروح أي إنسـان أو إنسـانة لصالح المسيح، أينما كان وأينـما كانـت، وهذا انتصار لملكوت الله. لكن لو لم نذهب إلى مـا هـو أبعد من مجـرد اللقاءات الشـخصية البنّاءة مع يسـوع، لفاتتنـا عظمـة قضيته. ويكتب بهـذا الصدد والدي ايبرهـارد آرنولد فيقول:

نـرى هنـا كيـف يفـتر الحـماس عنـد عدد كبـير من المسـيحيين. لأن أكثر ما يشـغل الناس باسـتمرار هو سـعيهم إلى تثبيـت نعمة الخلاص في نفوسـهم التي حصلوا عليها سلفا. فبدلا عن ذلك يجب أن يقولوا: «لقد وهبني الله هذه التجربة الشخصية ليساعدني عـلى الحصول على وضوح عن المسـيح بكامله وعن ملكـوت اللـه بكامله، ذلك الوضوح الذي من شـأنه أن يجعـل مـن حيـاتي جـزءا مـن الحيـاة المكرّسـة لملكوته.»

وعندما أوصانا يسوع بأن نطلب أولا ملكوت الله وبِرّه فربما كان ذلك من أجل أن: نصبح مؤهلين، ليس بمعنى نيل بركته شخصيا والاكتفاء بذلك بل أيضا بمعنى أن نصبح مجاهدين في سبيل ملكوته. لذلك، لِنَعِشْ بأشد توقُّع لتدخُّل الرب في الحياة! فلو لم ننتظره بترقُّب كبير ليتدخّل في كل مجال من مجالات حياتنا ليشملها كلها ويغيّرها كلها ويعمِّدها كلها، لما كنا حقا منتظرين له أصلا. وأنا شخصيا أسأل نفسي في نهاية كل يوم: هل كان حقا عندي رجاء قوي في هذا اليوم؟ هل جاهدتُ كثيرا؟ هل أحببتُ كثيرا؟ فيجب على توقعاتنا لتدخُّل ملكوت الله أن تقودنا إلى عمل وحركة دؤوبة. إذ يقول يسوع المسيح في نهاية موعظته على الجبل:

> فمَنْ سمِعَ كلامي هذا وعمِلَ بِه يكونُ مِثْلَ رَجُلٍ عاقِلٍ بَنى بَيتَهُ على الصَّخْرِ. (متى 7: 24)

لذلك يمكننا أن نبرهن على عمق رغبتنا في إتِّباع المسيح عن طريق العمل بمشيئة الله. ويجب على اشتياق قلوبنا مهما كانت مشاعرنا مُلتَبِسة ومتقلِّبة أن يبقى متأكدا من خيار واحد: إما أن نجوع ونتعطش إلى الرب يسوع وإما أن نصدّ عنه. والفرق بين الاثنين له أهمية بالغة لكل واحد منا بشأن مستقبلنا الأبدي.

ما أعظم تكريس الحياة لملكوت الله! لا تتراجع. كرّس حياتك للملكوت؛ ابحث عنه، وسوف تكتشف مدى عظمة جبروته بحيث أنه يغمر كيانك كله بظلّه – وسوف يحلّ كل مشكلة في حياتك، وكل مشكلة على وجه الأرض. وسوف يتجدّد كل شيء، وسوف يحب كل إنسان أخاه الإنسان بفضل المسيح. وسوف تندحر كل الانقسامات والخطايا، وكل المعاناة والآلام والظلمة والموت، وسوف تحكم المحبة وحدها.

من سيرة الكاتب

عندما كان عمر هاينريش آرنولد - واسمه الكامل يوهان هاينريش آرنولد Johann Heinrich Arnold (1913 - 1982م) - ست سنوات قرر والداه، ايبرهارد وايمي Eberhard and Emmy، أن يتركا مدينة برلين ويهجرا منزلهما وحياتهما الراقية والثريّة وانتقلوا جميعا إلى قرية في وسط ألمانيا تدعى زانرز Sannerz بالألمانية. وهناك، شرعا مع جماعة صغيرة من الأصدقاء بتأسيس مجتمع مسيحي كليّ المشاركة قوامه المحبة والمؤاخاة ومخافة الله والتوبة وقائم على الأساس الروحي الذي ورد في الإنجيل عن حياة الكنيسة الرسولية الأولى في فجر المسيحية المدون في سفر أعمال الرسل الفصل الثاني والرابع بالإضافة إلى موعظة يسوع المسيح على الجبل.

وكانت الفوضى والتمزق يعمّان البلاد في ذلك الوقت.

أما الاضطرابات بشتى أنواعها التي أعقبت زمن الحرب العالمية الأولى التي دفعت والده الذي كان محررا صحفيا معروفا ولاهوتيا وخطيبا، ليقوم بمجازفة ويخطو هذه الخطوة المسيحية الخالصة، فكانت قد دفعت أيضا الآلاف من الناس الآخرين لمناهضة التقاليد الاجتماعية المُجحِفة والمظاهر الدينية المتزمتة لتلك المرحلة، والبحث عن طرق حياتية جديدة لتجسيد طريق المسيح عمليّا.

فكانت تلك السنوات بالنسبة إلى المؤلف هاينريش سنوات تكوينية شكّلت بنيته الروحية. ثم أن التدفق المتواصل على مجتمعه المسيحي الصغير أثّر فيه بعمق، حيث كان يزورهم شتى أنواع الناس مثل شباب فوضويين Anarchists [1] ومتشردين[2] ومعلمين وفنانين ومفكرين أحرار من أصحاب الفكر الحرّ. فكل أولئك الناس نبذوا رياء العالم المسيحي والديانة المسيحية المؤسساتية التي أمست غير مجدية وبلا معنى، والعديد منهم شعروا بانجذاب إلى حياة التفاني والفرح التي وجدوها في مجتمع زانرز.

(1) الفوضويون هم المنادون بمبدأ الفوضوية وهي فلسلفة سياسية لا تؤمن بالنظام الحكومي بل بإقامة علاقات بين الناس على أسس فردية حرّة.

(2) المتشردون هم لا بيت لهم ولا وظيفة، يتجوَّلون بدون هدف مشيًا على الأقدام، قائمين بأفعال غريبة أو سائلين الناسَ لكسب معيشتهم.

أما هاينريش فقد أحسّ بالدعوة الإلهية له ليتبع يسوع المسيح عندما كان عمره أحد عشرة سنة. فلبّى الدعوة ورهن حياته لاحقا عندما صار شابا ليقدم نذوره المؤبدة للخدمة ضمن المجتمع المتشارك للكنيسة، الذي عُرِف آنذاك باسم برودرهوف Bruderhof (وهي تسمية ألمانية تعني مكان الإخوة). وفي عام 1938م تمّ ترسيمه «خادم الكلمة» (أي قسيس،) ومن بعد عام 1962م ولغاية وفاته خدم كشيخ كنسي لجماعة برودرهوف المسيحية المتنامية.

والرعية التي كانت في عهدة هاينريش لا يمكننا تسميتها بكنيسة عادية مثل بقية الكنائس، ولم تكن خدمته مشابهة مطلقا لعمل القسيس بالمفهوم التقليدي. بالإضافة إلى أنه لم يتحلَّ بشخصية جذابة، وما كان حاصلا على شهادة أكاديمية رسمية بعلم اللاهوت. لكنه كان «مرشدا روحيا» بحق، فكان يهتم من صميم قلبه بالسلامة الروحية والعملية للمجتمعات التي كانت في عهدته. فقد خدم أفراد مجتمع الكنيسة من إخوة وأخوات جاعلا نفسه قبل كل شيء بالمستوى نفسه معهم وتقاسم معهم الحياة اليومية بكل ما فيها من عمل وترفيه سواء كانت عند المآدب المشتركة أو اجتماعات مصلحة العمل أو اجتماعات العبادة.

وقد التجأ الناس إلى هاينريش طالبين النصائح في كل مجال من مجالات الحياة الروحية سواء كانت على الصعيد الشخصي أو على صعيد الجماعة. لكن نلاحظ بوضوح وجود عامل مشترك واحد يمرّ من خلال جميع ما كتب، ألا وهو التأكيد على أن: السيد المسيح وصليبه هما مركز الكون. ويصرّ باستمرار على أن الحصول على إيمان مسيحي حيّ غير ممكن ما لم يتمّ مقابلة السيد المسيح بصورة شخصية – وما لم يتمّ التواجه مع رسالته الخاصة بالتوبة والمحبة.

وبسبب تمركز المسيح عند هاينريش فقد وهبه ذلك شجاعة غير اعتيادية لمواجهة الخطايا. فلم يتسامح مع اللامبالاة بمتطلبات الإنجيل. لكنه حارب الشرّ في نفسه مثلما حاربه في نفوس الآخرين، ولم تكن المعارك موجهة ضد أي شخص مطلقا، بل ضد الخطايا. وجعله هذا عرضة للانتقاد في بعض الأحيان وتمّ وصفه بأنه عصبي المزاج وحادّ الطبع، لكن، وكما سأل هو بنفسه في إحدى المرات، كيف يمكن للمرء الذي يحب المسيح أن يبقى بكل فتور غير مبالٍ أمام الخطر الذي تتعرض له كرامة الكنيسة؟

وهذا ما جعله أيضا يدعو الناس إلى التوبة بكلام لاذع في بعض الأحيان قائلا:

ألا نستعد لكلمات المسيح لندعها تخترق أعماق كياننا – أم نستمر في وقاية نفوسنا منها ونقسّي قلوبنا تجاهها؟ فلا ندرك كم مرة وقفنا في طريق الله. لكن يمكننا أن نسأل الله أن يخترق أحشاءنا بكلمته الإلهية، حتى لو كانت مؤلمة.

وبذات الحميّة وبذات الإصرار التي دعا بهما الناس إلى التوبة، سعى أيضا إلى التحلّي بالرأفة والمغفرة تجاه الآخرين. فلو بحثنا عن الذين يأخذون على محمل الجد وصية يسوع المسيح «اِغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ» ووصية الغفران «سَبْعِينَ مَرَّةً سَبْعَ مَرَّاتٍ،» لوجدنا أن هاينريش واحد منهم.

ولما كان هاينريش شيخا كنسيا لمجتمعات برودرهوف المسيحية، قضى ساعات كثيرة في قراءة الرسائل التي كانت تتدفق إليه يوميا آخذا بنظر الاعتبار محتواها والصلاة من أجلها حتى أنه كان يعيد قراءة بعض منها، وكانت رسائله الجوابية تعكس مدى التواضع الذي كان يجيب به. وعندما كان يُسأل سؤال أو يُطلب منه طلبا كان يقدم إما مشورة وإما تعزية وإما توبيخا بل ربما لوما عنيفا أيضا، لكنه لم ينتقد أو يقلل من شأن من كان يلجأ إليه مطلقا. لذلك كان يلتجئ إليه المئات من الناس سنة بعد سنة، وكان يوجههم دائما ليمضوا إلى الأمام نحو المسيح –

ليخرجوا خارج نطاق انشغالهم الذاتي بخطاياهم أو حتى خارج قداستهم البشرية الزائفة.

وكان هاينريش يعلم جيدا أنه لا يعرف جميع الأجوبة والحلول. فغالبا ما كان يقول أنه بحاجة إلى أن يفكر في موضوع المسألة أو يود الصلاة من أجل حلّها، أو مجرد يشعر بأنه لا يعرف ماذا يفعل بشأنها. وكان يردّ على من أراد أن يشرح له آية صعبة أو تناقض واضح أو معنى فقرة غامضة في الكتاب المقدس كالآتي: «لقد فكرتُ بهذه الكلمات عدة مرات، لكني أنا شخصيا لا أفهمها تماما. لنتركها لله. فسوف يبين لنا الله الجواب في يوم ما» – ولم يحاول أن يفسّرها إن لم يكن يعرف تفسيرها. وبالرغم من أنه قد استفاض في قراءة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد لدى الجماعة، إلا أن تعليمه كان تعليم القلب، ومعرفته كانت معرفة بالروح البشرية، وفهمه لطرق الله كان وليد محبته لله وليسوع المسيح وللكنيسة.

وأهم كل شيء كان له قابلية الاستماع: فكان يستمع إلى إخوانه وأخواته في الكنيسة، واستمع إلى أصدقاء وغرباء ومنتقدين وأهم من كل شيء الاستماع إلى الله. فقال مرة:

أريد أن استمع بقلبي الروحي إلى صوت الله وهو يتكلم من خلال أخوية الكنيسة.
أريد أن أشهد ليسوع المسيح في زماننا هذا.
أريد أن أصبح فقيرا. . . . فقيرا إلى روح الله.
أريد أن أكون مطيعا وأن أذهب حيثما ترسلني الكنيسة،
وأن أعمل بمشيئة الله.

لقد تأثرت كتابات هاينريش بصورة رئيسية بكتابات والده ايبرهارد آرنولد (مؤسس حركة برودرهوف المسيحية للحياة المشتركة Bruderhof)؛ وكتابات القسيس الألماني يوهان كريستوف بلومهارت Johann Christoph Blumhardt وابنه القسيس كريستوف فريدريش بلومهارت Christoph Friedrich Blumhardt اللذان تميزا برؤيتهما الحيّة عن ملكوت الله على أنه واقع حاضر، وقد أيّدهما الله بقوات وعجائب كثيرة صنعها على أيديهما؛ وتأثر أيضا بكتابات اللاهوتي والفيلسوف الألماني مايستر ايكهارت Meister Eckhardt الذي كان من الآباء الروحانيين وكانت له الكثير من الكتابات المفيدة بشأن العلاقة مع الله، حيث نرى تعمّقه الروحي ينعكس في ميول هاينريش إلى الحياة الروحية المسيحية المتعافية التي لا تقتصر على علاقة مع الله فحسب بل أيضا على علاقة مع أخينا الإنسان وعلى حياة عملية منظورة وذلك عندما

ينكسر الإنسان لله ليمتلئ من الروح القدس وحرارته وغيرته فتتقدس روحه وحياته ويثمر حياة جديدة نقية ويحيا وفقا لمشيئة الله وإرشاده.

ثم أنه قد تأثر أيضا بشخصيات أخرى أمثال ديتريش فون هيلدابراند Dietrich von Hildebrand، وهو فيلسوف ولاهوتي كاثوليكي ألماني دعاه البابا بيوس الثاني عشر بصورة غير رسمية «طبيب الكنيسة للقرن العشرين،» بالإضافة إلى الأخصائي الألماني الكاثوليكي المعروف فريدريش فون جاجرن Friedrich von Gagern، والطبيب السويسري-الفرنسي الإخصائي في علم الاجتماع تشارلز بودوان، الذين قرأ كتبهم واعتاد أن يشير إليهم، ويدرج اقتباسات لهم. ويساهم كل هؤلاء الكتّاب في إضفاء رؤية واسعة على رسالة هاينريش بحيث لا يمكننا تجاهلها - تلك الرؤية التي ترفع أعيننا من تفاهات الحياة اليومية لنرى واقعا أعظم منا شخصيا، ذلك الواقع الذي غالبا ما نهمله. وإليكم اقتباس لهاينريش بهذا الشأن:

> ما أعظم الهبة التي نتمكن بفضلها رؤية ولو جزء يسير من رؤية يسوع المسيح العظيمة - ورؤية ما هو خارج نطاق حياتنا الصغيرة! مما لا شك فيه أن نظرتنا لها محدوديتها. لكن يمكننا على الأقل أن نسأله ليدعونا إلى الخروج من عوالمنا الصغيرة

ومـن تمركزنـا حول ذواتنـا والأنانية، ثـم أننا يمكننا عـلى الأقـل أن نسـأله ليجعلنا نتحسـس بالتحديات الموجـودة في عمليـة تجميـع الحصـاد العظيـم[1] – حصـاد جميـع الأمـم وجميـع النـاس، بمـا في ذلك أجيال المسـتقبل.

بقلم أسـرة التحرير

هاينريـش آرنولد وزوجتـه آنا ماري Annemarie

(1) الحصـاد يشـير هنـا إلى مـا قالـه الـرب يسـوع المسـيح في الإنجيـل: «وقـالَ لهُـم: الحَصادُ كثـيرٌ، ولكِنَّ العُمّالَ قَليلونَ. فاَطلُبـوا مِنْ رَبِّ الحَصادِ أنْ يُرسِـلَ عُـمَّالاً إلى حصـادِهِ.» (لوقـا 10: 2)

نبذة عن جماعة برودرهوف

في زماننا المعاصر تعيش مجتمعات جماعة برودرهوف المسالمة الحياة المسيحية المشتركة في عدد من الدول. فكل الماديّات مشتركة. وتعني تسمية برودرهوف بالألمانية: مكان الإخوة. ويتألف قوامها من عائلات وعزاب على حد سواء.

وهي غير طائفية، ولديها علاقات حميمة مع الجميع. وتدعو جميع الكنائس إلى التزام الوحدة الحقيقية فيما بين أفرادها، والعيش كجماعة بالتزامات حياتية مؤبدة، وإلى العمل المشترك في سبيل تجسيد ملكوت الله على أرض الواقع، كما تدعو أيضا إلى خدمة الإنسانية، والتعاون مع جميع القوى الخيّرة مهما كان معتقدها في سبيل السلام وبناء المعمورة.

أما أفراد جماعة برودرهوف فقد جاؤوا من بلدان

مختلفـة ومن خلفيـات متنوعة، وجمعهم الـرب ليصبحوا إخـوة وأخوات فعليّا. ويقدمون نذورهم المؤبدة بالخدمة والطاعـة والفقـر. ومثالهـا حيـاة يسـوع المسـيح وجماعـة التلاميـذ وحيـاة الكنيسـة الرسـولية المذكـورة في الإنجيـل كما يلي:

> وكانَ المُؤمِنـون كُلُّهُـم مُتَّحِديـنَ، يَجعَلـونَ كُلَّ مـا عِندَهُم مُشـتَرَكًا بَينَهُم، يَبيعـونَ أملاكَهُم وخَيراتِهِم ويَتقاسَـمونَ ثَمَنهـا على قَدرِ حاجَـةِ كُلِّ واحدٍ مِنهُم. (أعـمال 2: 44–45)

وللمزيد من المعلومات يمكنكم زيارة المواقع التالية:

www.Plough.com/ar

www.bruderhof.com

www.facebook.com/thebruderhof

www.youtube.com/user/BruderhofCommunities